
"يتحول الإنسان إلى حيوان عندما يتعلق الأمر بمدخراته"
THE SUM OF
Pounds
Y53 264879
مدونة أبو عبدو
أبو عبدو البغل
ربيع البربر
يوناس لوشر
العربي للنشر والتوزيع
ترجمة: د. علا عادل
روايات مترجمة

ربيـــع البربـــر

ربيع البربر

يونـــاس لــوشر

ترجمة: د. عــلا عادل

الطبعة الأولى: 2016

رقم الإيداع: 2015/14159

الترقيم الدولي: 9789773192365

الغلاف: محمد السيد

تحرير: علي حامد

مراجعة لغوية: جمال أبو زيد



60شارع القصرالعيني - 11451 - القاهرة

ت 27921943 - 27954529 فاكس 27947566

www.alarabipublishing.com.eg

Frühling Der Barbaren

By Jonas Lüscher

Publication of this work was supported by **Pro Helvetia**

يونـــاس لــوشر

ربيـــع البربـــر

رواية

ترجمة: د. عــلا عادل



بطاقة فهرسة

لوشر ، يوناس
ربيع البربر: رواية من الأدب السويسري / تأليف يوناس لوشر ، ترجمة علا عادل .
- القاهرة : العربي للنشر والتوزيع ، 2015 ،
ص ؛ سم .
تدمك 9789773192235
1- القصص السويسرية
أ- عادل ، علا (مترجم)
ب- العنوان 849.43

القراء الأعزاء

أنا في غاية السعادة لأن يصدر هذا الكتاب باللغة العربية الآن، لاسيما وأن جزءًا كبيرًا منه تدور أحداثه في دولة عربية – في تونس. ولطالما كنت أهتم بأن أعرف كيف يطالع القراء من بلاد أخرى ومن دوائر ثقافية مختلفة كتابًا. ما الذي يعجبهم فيه وما لا يعجبهم، ما الجوانب التي يعتبرونها مهمة ومألوفة، وما الذي يبدو غريبًا بالنسبة لهم، وما السياقات التي يضعونها بينه وحياتهم الخاصة. إلا أن ما يهمني على وجه الخصوص هو كيفية استقبال القراء العرب لهذا الكتاب.

هناك أمر أود أن أصرح به مُسبقًا: هذا الكتاب ليس كتابًا عن العالم العربي – كيف يتأتى ذلك؛ فالعالم العربي كبير للغاية ومتنوع بدرجة لا تسمح لكتاب واحد بتناوله – كما أنه ليس كتابًا عن شمال أفريقيا وليس عن تونس. بل هو كتاب يتناول نظرة غريبة للغاية وخاصةً عن تونس؛ نظرة السائح الأوروبي الثري الذي لم يعايش هذا البلد الغريب عنه سوى عبر ألواح الزجاج الداكن بأتوبيس الرحلات مكيف الهواء، أو من وراء الأسوار العالية لأحد المنتجعات السياحية الفاخرة؛ حيث لا ينبغي أن يظهر ما هو عربي إلا بوصفه شيئًا غريب الأطوار وعلى سبيل قِطَع الديكور للزينة، بينما يبقى الاتصال بالمواطنين التونسيين محدودًا،

يقتصر على لقاءات عابرة وغير منتظمة مع عاملات النظافة بالفندق والجرسونات ومُلاك الفندق.

"الربيع العربي" الذي يشير إليه أيضًا عنوان الكتاب ذي المعاني المتعددة، فاجأني وأنا في منتصف العمل. كنت قد كتبت لتوي الفصل الثاني حينما بدأت الاحتجاجات في تونس نهاية عام 2010. وأنا بوصفي راوي حكايات يعتبر نفسه كاتبًا سياسيًّا، لم أكن لأترك هذه الأحداث المهمة والواقعية تمر مرور الكرام دون أن تتسلل إلى العمل. ورد في رواية "ربيع البربر" ربيع عربي ثاني خيالي؛ إذ يبدو لي أن هذه الثورة ظلت عالقة في منتصف الطريق. في الصفحة الأخيرة هناك تذكرة بواحدة من كبريات الصور الأيقونية التي حفرت أحداث ميدان التحرير بالذاكرة على مستوى العالم.

إن بطل حكايتي، رجل الأعمال السويسري "برايزينج"، يصر على لعب دور المراقب دائمًا حتى وإن كان شاهدًا على أحداث درامية. لا يتخذ قرارًا مرة واحدة، ولا يبادر بالفعل لمرة واحدة. ربما يكون هناك من ينتقد هذا الموقف تجاه العالم بوصفه موقفًا سويسريًّا صِرفًا. ويبدو لي كذلك أن هؤلاء "البرايزينج" موجودون في كل مكان، في كل المجتمعات. عدم الفعل هو موضوع هذا الكتاب، إنه أحد الأعراض المرضية لعصرنا هذا.

أتمنى لكم مطالعة محفزة على الفكر !

يوناس لوشر

مقدمة الناشر

"ربيــع البربـر"
في التحضر والهمجية

من هم الهمج.. ومن هم البربر في هذا العالم..؟

في روايته الأولى .. لا يجيب الروائي السويسرى "يوناس لوشر" عن هذا السؤال بهذه البساطة هنا في هذه الرواية - 190 صفحة - ربما لم يتوقع "يوناس" أن تحقق هذه المبيعات غير المتوقعة التى بلغت 30 ألف نسخة في ألمانيا لدى صدورها، وإن كانت فكرة "البيست سيللر" ربما لا تجذب البعض لشراء كتاب، فإن الكثيرين يجب أن يقبلوا على قراءة هذا العمل لعدة أسباب، أولها، أن أحداث هذه الرواية تمس بشكل ما خصوصية عربية، وهي أحداث الربيع التى بدأت منذ 2011، لكن هذه المرة برؤية سويسرية مختلفة التناول.

"ربيع البربر" بطلها الرئيسي هو "برايزينج" الوريث للمصانع السويسرية التى تحمل اسم عائلته "بريكسينج"، وتدور أحداثها أثناء رحلة عمل وتلبية لدعوة بقضاء أسبوع في صحبة رجل أعمال تونسي هو "سليم مالوخ" وابنته "سعيدة" التي تُدير منتجعًا سياحيًا ترتاده الطبقة

المترفة من السيَّاح الأجانب، ويقع في واحة "تشوب" إحدى واحات الجنوب في تونس بمنطقة البربر.

أجواء الرواية، تقترب من تصورات ما يدور في أخيلة المستشرقين الأوروبيين، ومفاهيمهم عن الشرق عامةً والمنطقة العربيةخاصةً، "يوناس لوشر" نفسه حينما يتحدث عن كيفية كتابته لهذه الرواية، يبرز الخيال كأداة رئيسية من أدواته، فالرجل لم يسبق له زيارة تونس، لكنه أعمل خياله، فأنتج القصة البديعة التى تدور في منتجع السياحة الراقية، يبدأ التحضير لحفلة زفاف اثنين من شباب الأغنياء الإنجليز هما "مارك وكيلي"؛ حيث يجتمع مجموعة من أصدقائهم "المودرن" من لندن، يعملون في مجال "البيزنس"، ليقيموا احتفالات أسطورية فخمة تُحقق تخيلاتهم عما قرأوه واستخلصوه من روايات الشرق السحرية وحكايات ألف ليلة وليلة.

تصيغ الرواية دراما بالغة العنف تؤكد أن نتائج العولمة الرأسمالية (الشركات عابرة القارات) تُلقي بثقلها على سكان البلاد المتخلفة التي تفتقر إلى تنمية حقيقية نابعة من تراثها القومي وثرواتها الطبيعية، ويكتشف بطل الرواية " برايزينج" مدى هشاشة غطاء التحضر الذي يتدثر به أثرياء الأوروبيين، بعد أن تجرفه هو وأصحابه ومعارفه ورواد المنتجع السياحي الفخم ـ تيارات وعواصف الأزمة الاقتصادية، وتداعياتها التي تطاردهم حتى في أوقات استجمامهم.

"ربيع البربر" انطلاقة أولى لكاتب معاصر، تضع الثورات والاضطرابات الدائرة في المنطقة العربية وخاصةً ثورة الياسمين الأولى في تونس، في خلفية أحداثها الفوارة بالمواقف والتناقضات الإنسانية: مشاعر الحب والكراهية، الرضا والأنانية، التعاطف والنهم الغريزي.. وغير ذلك من العواطف المتضاربة والانفعالات البشرية.

هنا سرد قصصي مشوق، مثير، وساخر أو تهكمي لأبعد مدى. في أسلوب جمالي وبناء فني مُحْكَم، حيث يستعين الكاتب في مواقع كثيرة من النص القصصي بأدوات ومنجزات الرواية الجديدة في الغرب، ويظهر جليا -وهو ما يهم القارئ العربى- كيف استفاد الكاتب من قراءاته في الآداب العربية والأوروبية، فتكثر في ثنايا سرده الروائي الإحالات والإشارات الثقافية المتنوعة؛ فهناك ذكر لأدباء مغاربة كالمسعدي (من تونس) ومحمد شكري (من المغرب). كما نقرأ أسماء كُتَّاب وشعراء آخرين من الغرب؛ مثل "جاري سنيدر" من "جيل البيت beat" الذي تضمنت الرواية قصيدة موحية له.. بالإضافة إلى "بول بولز" الأمريكي المقيم في طنجة، و"نابوكوف" الروسي المهاجر في أمريكا، والمعروف بروايته المثيرة "لوليتا" وهوايته الغريبة: الفراشات.. ويجيء الفرنسي "ستندال" الذي تسببت إحدى أعماله الروائية في موت "لورا" محترقة.

أسلوب "لوشر" عموماً سينمائي، محتشد بتتابع اللقطات والمناظر الطبيعية والصور التي لا تُنسى. وهو سهل وجذاب، يشد قارئه من أول سطر، حتى نهاية الرواية التي نلتقي فيها بالشخصيات الأوروبية المرفهة وهي تسعى للهرب، وتتصرف ـ أثناء الكارثة المحيقة بها ـ كأنها كائنات بدائية همجية أو بربرية !

وقد حققت هذه الرواية البديعة نجاحًا كبيرًا عند صدورها، فهي كما أشرنا مكتوبة بلغة غنية ومكثفة، وبأسلوب مختلف، تُذَكِّرنا بمؤلفات كُتَّاب سويسريين عظام ومشهورين في الثقافة العالمية: "فريدريش دورينمات"، و"ماكس فريش".. لذلك أسرعنا بترجمتها إلى لغتنا العربية، ليطلع عشاق الروائع الأدبية على الجديد والمعاصر في هذا الحقل الفني.

"ربيع البربر" رواية تدعو إلى التأمل في ماهية التحضر والتمدن.. في معنى الضعف الإنساني، وهشاشة الشكل الخارجى لمدنية العالم الرأسمالي المعاصر.. المكدس بالسلع وكافة أشكال الرفاهية، وبالسلوك البربري البدائي للإنسان كذلك.

وهو ما يعيدنا لسؤالنا الأول...

من هم الهمج.. من هم البربر هنا؟

عن الكاتب :

يوناس لوشر:

ولد في برن (سويسرا) سنة 1976م، وعمل مدرساً في مرحلة التعليم الأساسي (الابتدائي) في مدينة برن، وقضى بضع سنوات يعمل في مجال صناعة الأفلام (عالم السينما) في ألمانيا، ثم درس في مدرسة ميونيخ للفلسفة في سنة 2005، وبعد تخرجه وحصوله على الدراسات العليا في الفلسفة، عمل محررًا أدبيًا حرًا في الصحافة، بعدها عمل باحثاً في معهد العلوم والتكنولوجيا في ميونيخ؛ حيث كان يُدَرِّس مادة "علم الأخلاق" في مدرسة الاقتصاد بالمدينة نفسها، وظل يُحاضر فى الأدب المقارن، تسعة أشهر، كأستاذ زائر في جامعة ستانفورد (الولايات المتحدة الأمريكية) خلال العامين 2012، 2013.

حصل على جائزة "بيرنر" للأدب عن روايته الأولى "ربيع البربر" سنة 2013. وحاز على جائزة "الكتاب الألماني" في القائمة الطويلة، عن الرواية نفسها، والتي نشرتها له الدار الألمانية الشهيرة "C.H.Beck".

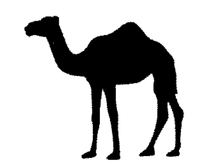
يعيش "يوناس" حالياً في ميونيخ، ويُعتبر أديبًا سويسريًا يكتب بالألمانية.

ما البربرية؟ البربرية في الواقع لا تُمَاثِل البدائية وعدم التحضر ثقافيًّا، وليست هي عودة عقارب الساعة للوراء.. بل هي حالة يتوافر فيها الكثير من قيم الثقافة العليا دون السياق الاجتماعي والأخلاقي الذي يُمَثِّل مُقَومًا أساسيًّا للصلاح العقلاني في ثقافةٍ ما. لذا فإن "البربرية" تُعد عملية إبداع. وإذا انهار السياق الشامل لإحدى الثقافات ذات مرة، يبقى الطريق مفتوحًا من أجل تجديد قوة الإبداع والخلق.. وهذا الطريق يمكن أن يمر بمراحل إفقار في الحياة السياسية والاقتصادية، ويمر بقرون من الإفقار الروحي والمادي، بل وبمعاناة وآلام رهيبة. ربما لا يظل نوع الحضارة والثقافة الخاص الذي نتمتع به باقيًا بلا انقطاع، إلا أننا يمكن أن نثق بأن ثمار هذه الحضارة والثقافة ستظل باقية بأي شكل من الأشكال.

ليس في التاريخ أي دليل على أن التطور يأتي من فراغ.

"فرانز بوركيناو"

1



قال "برايزينج":

- لا؛ أنت تطرح الأسئلة الخاطئة.

وظل واقفًا في منتصف الطريق المكسوّ بالحصى ليمنح اعتراضه انطباعًا أقوى. عادة لم أعد قادرًا على أن أتحملها، لأن نزهاتنا السابقة كانت تشبه الجولات القصيرة واللاهثة التي تقوم بها كلاب الصيد المُسِنَّة ثقيلة الحركة. رغم ذلك كنتُ أتنزَّه مع "برايزينج" يوميًّا، فهو أحب رفيق لي في ذلك المكان برغم كل عاداته السخيفة الكثيرة.

كَرَّرَ الرجل جملته:

- لا؛ أنت تطرح الأسئلة الخاطئة.

ثم تابع السير أخيرًا.

كان "برايزينج" يتحدث كثيرًا، إلا أنه كان جادًّا في كلامه، وكان يعرف دائمًا وبالتحديد ماهية الأسئلة التي يرغب في أن تُطرح عليه حتى يتمكن من الاستمرار في الحديث. ولم يتبق أمامي أنا، أنا المجبر على صحبته لأني حبيس هنا، سوى أن أسايره في ذلك.

وكان من عادته أيضًا أن يستخدم كلمات من بين ثروته اللغوية وهو متأكد أنه الوحيد الذي ما زال يستعملها. وقد أثَّر فيّ أسلوبه كثيرا في الأسابيع الأخيرة.

قال الرجل:

- انتبه! سوف أثبت لك ذلك، وأقص عليك قصةً لهذاالغرض، قصةً سوف تتعلم منها شيئًا، مليئةً بالتحولات التي لا يُصَدِّقها عقل، وبالمخاطر التي تنطوي على مغامرات، فضلًا عن الإغراءات التي قد تُدهشك.

من يتوقع الآن قصة ماجنة لا يمكن إلا أن يكون مخطئًا، إذ لم يتحدث "برايزينج" مطلقًا عن حياته الجنسية، ولم يكن عليّ أن أخشى ذلك، فأنا كنت أعرف الرجل جيدًا. ولم يسعني سوى أن أخمِّن ما إذا كانت له حياة جنسية من الأساس أم لا. ومجرد تصور ذلك كان أمرًا صعبًا. ولكنه ربما يكون مُضَلِّلًا. فأنا أتعجب في النهاية عندما أواجه نفسي في المرآة من كون شخص مثلي - لا يتمتع سوى بقدر ضئيل من الحيوية - قادر على أن يعيش حياة جنسية كما فعلت.

توقف"برايزينج" أكثر من مرة ـ أثناء سيرنا ـ قبل أن يتمكن من سرد حكايته. بدا كأنه يُلقي نظرةً على الماضي، ويحاول تحديد ملامحه في الأفق قريباً من قمة السور الأصفر العالي الذي كنا نتمشى إلى جواره. مما جعله يضم عينيه، ثم يرفع أنفه ويمد شفتيه الرقيقتين. وأخيرًا بدأ في سرد قصته قائلاً:

- ربما، لو لم يحدث كل هذا لما أرسلني "برودانوفيتش" في إجازة.

لم يكن "برودانوفيتش" طبيب العائلة، ولكن كان طبقًا لحكاية "برايزينج" موظَّفًا لامعًا في الشركة المساهمة التي آلت إلى "برايزينج" بالميراث، والمتخصصة في أجهزة الديكودر وهوائيات الأسطح. وكان هو من أنقذ الشركة التي ورثها "برايزينج"، من خطر الإفلاس الذي كادت تتعرض له، واستطاع أن يجعلها من الشركات الرائدة عالميًّا، والمتخصصة في توصيلات الدوائر الإلكترونية، وذلك عندما توصَّل إلى اختراعه، الذي تَمَثَّل في توصيلة "فولفرام" للدوائر الكهربائية، ذلك المكوّن الإلكتروني الذي لا يمكن لأي هوائي أو موبايل في هذا العالم أن يؤدي خدماته دونه.

ورث "برايزينج" مصنع هوائيات التليفزيون عن أبيه، الذي عاش سنوات طويلة حتى تُوفِّي؛ استكمل خلالها دراسة إدارة الأعمال بعد أن قطعها لمدة عام ونصف العام قضاها بإحدى مدارس الغناء الخاصة في باريس.

كان المصنع يضم خمسة وثلاثين موظفًا في الوقت الذي كانت فيه وصلات الكابلات موجودة منذ فترة طويلة.

أسس أجداد "برايزينج" شركة لتصنيع مستلزمات خفض مقياس الجهد، وبذلوا جهودًا جبارة من أجل تنميتها وتوسيع أعمالها. وقد جمعت تلك الشركة معظم أرباحها من تصنيع الهوائيات الطويلة، والتي اعتاد هواة الإذاعة زرعها على أسطح منازلهم لكونها مناسبة السعر، إلا أن تلك الموضة انقرضت مع مرور الزمن.

هكذا حصد "برايزينج" شركة ضعيفة وإن كانت دون أية ديون، شركة كانت تحتاج إلى قرارات حاسمة، لذا كان في حكم الأكيد أن الشركة لم تكن لتبقى حتى اليوم لو لم يُطَوِّر الفنيّ الشابّ "برودانوفيتش" توصيلة "فولفرام" ليمسك بزمام الأمور. فهو، منذ ذلك الحين، لم يكن مسئولًا عن كون "برايزينج" أصبح أحد المُلاك الأثرياء فحسب، بل هو من جعله رئيسًا لمجلس إدارة شركة تضم ألفًا وخمسمائة موظف ولها أفرع منتشرة في خمس قارَّات. على الأقل من حيث الظاهر؛ لأن "برودانوفيتش" كان هو المدير الإداري في تلك المؤسسة النشيطة التي حصلت بدورها على الاسم المعروف "بريكسينج"، يشاركه في ذلك فريق من أصحاب الكفاءات والمبتكرين المبدعين.

كان"برايزنج" مطلوبًا بوصفه واجهة للشركة، لأن "برودانوفيتش" كان يعرف أنه القادر على أن يعكس روح المقاومة والصلابة، روح مؤسسة العائلة التي لا يهزها شيء، لاسيما في جيلها الرابع. وهو الأمر الذي لم يكن

"برودانوفيتش"- ابن عامل الكافيتيريا البوسني- ليتجرأ على فعله، لأنه هو شخصيًّا كان يرى أن كل من يحمل أصولًا بلقانية كان تجسيدًا لعدم الاستقرار، ذلك الانطباع الذي كان يحاول أن يتفاداه بأي ثمن، لذلك كان يُلقي محاضرات في مدارس المدينة التي تضم طلابًا مشاغبين، طالما كان جدول مواعيده المزدحم يسمح بذلك. وكان الغرض من تلك المحاضرات يتمثل في تقديم نفسه بوصفه مثال الاندماج الناجح. هذا الـ"برودانوفيتش" - الذي كان يملك توكيلاً عامًّا - أعطى "برايزينج" إجازة. وهو ما كان يُكَرِّره بانتظام عندما يُقْدِم على اتخاذ قرارات مهمة.

وقد فهمتُ بالفعل أن "برايزينج" نجح في أن يُبرئ ساحته من أن يكون هو المتسبب في الأحداث المقبلة، بعد الجملة الأولى من قصته.

لم يكن "برايزينج" مضطرًا حتى للتفكير في المكان الذي سيقضي فيه الإجازة، إذ كان "برودانوفيتش" نشيطًا، وكان يحاول دائمًا الربط بين ما هو مريح ومفيد، ما يعني في تلك الحالة أن يسافر "برايزينج" بالطائرة إلى تونس، حيث كان لهم مصنع توريد عبارة عن مبنى صغير باهت اللون في إحدى المناطق الصناعية الكثيرة بأطراف مدينة صفاقس، على الطريق المؤدي إلى تونس.

كان "سليم مالوخ" - صاحب مصنع التجميع - تاجرًا متجولاً يعمل في مجالات مختلفة؛ مثل تصنيع الأجهزة الإلكترونية وتجارة الفوسفات

وسياحة الأغنياء. كما يمتلك عددًا من الفنادق الفاخرة، لذا كان من المفترض أن يحل "برايزينج" ضيفًا عليه.

لطالما كان "مالوخ" يسعى للتقرب من أي شخص له علاقة بالاتصالات بطريقة أو بأخرى، لأنه لم يكن يرى المستقبل وحده في "برايزينج"، بل كان يرى فيه إنقاذًا لمؤسسة العائلة. كان "مالوخ" أبًا لأربع بنات ذكيات وحسنات المظهر، لكنه لا يستطيع أن يعهد إليهن بإدارة شركة العائلة بكل أسف، هكذا كانت العادات في تونس. لذا وقعت المسئولية بأكملها على عاتق ابنه "فؤاد مالوخ"، الذي انحنت كتفيه تحت الثقل المعنوي لدراسة البيئة الجغرافية في باريس. فشعر بأن تلك المسؤولية خارج سياقه، عندما طُلب منه إدارة شركة تجمع أرباحها من تجارة الفوسفات الذي كان يصل إلى أوروبا في شكل سماد صناعي يُستخدم في حقول الخضروات، وهدد والده بأنه سوف يُجَرِّب حظه في مزرعة بإقليم "لوت" الفرنسي. وكان "سليم مالوخ" شخصًا محترمًا ورجلاً عاقلاً - على حد قول "برايزينج" - وحاول الفرار من الفوسفات إلى مجال الاتصالات الإلكترونية؛ حيث تعرف على "برايزينج".

هكذا كان من المفترض أن يهرب "برايزينج" من الضباب الذي يُخَيِّم على منطقة سيلاند السويسرية ويتجه للربيع التونسي. غَيَّر سترته المصنوعة من قماش "التويد" وبنطلونه ماركة "مانشستر" أحمر اللون -

وارتدى سترة صفراء اللون بها نقوش. تلك الملابس التي لم تعجبه على الإطلاق، لكن مُدَبِّرة منزله هي التي انتقتها له، وكان يخشى أن يؤذي مشاعرها، لذا جلس متفائلاً ومبتسمًا إلى جوارها لتوصله إلى المطار بسيارتها، فهو لم يكن يمتلك سيارة.

أكد لي "برايزينج" قائلاً:

- كانت الرحلة بالطائرة مريحة تمامًا. وعلى غير عادتي شربتُ الويسكي. فقد أساءت المضيفة فهمي وأحضرت لي كأسًا من "السكوتش" بدلًا من العصير الذي طلبته. ونزلتُ على رغبتها وأخذته منها بعد أن أثارني قوامها الممتلئ الذي كان يتناقض مع نقشة الغزلان التي تُزَيِّن زيها الرسمي. لم تكن جميلة حقّاً. وقد صَعَّب الركابُ من الأمر، لأنهم شعروا بالخديعة بعد أن مَنَّوا أنفسهم بتجربة لاتُنسى بمجرد شراء تذكرة السفر. لذا كنت أعتقد أنه لايجب أن أفوِّت أي فرصة لمعاملتها بلطف. وهكذا تبعت الكأس الأولى، كأس ثانية وثالثة.

"سليم مالوخ" برفقته ابنته الكبرى، استقبل "برايزينج" في صالة استقبال مطار تونس – قرطاج؛ شديدة البرودة بسبب انخفاض حرارة المكيف. رأى "برايزينج" تلك الإشارة الفريدة التي قام بها "مالوخ" إلى سائقه الخاص بعد أن خرج إلى القيظ أمام مبنى المطار وهو يتجاوز سائقي الأجرة؛ لذا كاد أن يصدق ولو للحظة تلك الإشاعة التي تفيد بأن

"مالوخ" هو الابن غير الشرعي لـ"روجيه ترينكيه" - مؤلف العمل الشهير "الحرب الحديثة" *La Guerre moderne*- وعشيقته الجزائرية التي فرَّت إلى صحراء تونس حاملة طفلها "سليم" في الليلة نفسها التي غادر فيها الفرنسيون المغرب. وهناك في تونس تمكنت العشيقة بسرعة من العمل سكرتيرة لأحد النواب قليلي النفوذ بالحزب الحر الدستوري الجديد، وذلك بفضل جمالها ودرايتها بالنسخ على الآلة الكاتبة، وسرعان ما أصبحت زوجة لهذا الرجل الذي كان ينوي اغتيال الرئيس بورقيبة، ولم يمنعه عن تنفيذ مخططه سوى أزمة قلبية داهمته وسط جلسة البرلمان، إلا أنه حاز بعد وفاته على وسام الدولة لأنه تُوفي أثناء خدمته للوطن، كما حصلت أرملته، العشيقة السابقة للفرنسي مُعَذِّب الجزائريين، على معاش مُعتبر.

وقد تذكَّر "برايزينج" أن مصدر تلك الشائعة لم يكن ذا مصداقية، حيث سمع هذه القصة من رجل يُدعى "منصف داغفوس"، لم يكن فقط أشرس منافسي "مالوخ"، بل إنه عرض على "برايزينج" تجميع الوصلات الكهربائية في مصنعه الكائن على أطراف مدينة تونس بأسعار أفضل كثيرًا، حتى إنه اعترف بلا حياء أن السبب في انخفاض أسعاره يرجع إلى تشغيل الصبية القُصَّر اللاجئين من دارفور، ممن وصفهم بأنهم فتية مهرة وصغار.

كان "برايزينج" يرغب بشدة في الرفض، لكن قصة عمالة الأطفال لم تؤثر في قبوله. لأنه تذكر أمسية عشاء قضاها ذات مرة في نادي رجال

الأعمال الليبراليين أصدقاء "برودانوفيتش"، وفيها حكى له جاره على المائدة مدى صعوبة مشكلة عمالة الأطفال، التى ربما تكون الشر الأصغر وفقًا لظروف معينة.

أساء الرجل تقدير "برايزينج"، إذ اعتبره مقامرًا كبيرًا. ولم يكن "برايزينج" واثقًا مِمَّا إذا كان الأمر هنا له علاقة بتلك الظروف المعنية، لأنه واجه آنذاك صعوبة في مجاراة الرجل الشاب. وقد أجَّل القرار على أية حال لأنه كان يرغب في التحدث إلى "برودانوفيتش" أولًا، فظل يؤجل المسألة مع "منصف داغفوس" بعد أن ساق إليه مبررات لا أساس لها. وحاول تشويه سمعة غريمه "سليم مالوخ" بالتشكيك في أصله، وحاول كسب ود "برايزينج" بسعر رخيص خارج المنافسة، رغم أنه لم يكن شريكه في العمل بعد، بدأ في الهجوم الشديد عليه، واستدعى بناته الستة ليصطفوا أمامه، وترك له الخيار، فهن جميعًا في سن الزواج، عدا الثانية من اليسار، فقد كانت مخطوبة. وأكد عليه أنه إذا كان يريدها حتمًا فلا مانع من أن يتخلص من خطيبها في حادث سير، علمًا بأن ذلك ربما يكون مسألة حساسة، فضلاً عن أن الفتيات الخمسة غير المرتبطات لا ينقصن شيئًا عن تلك المخطوبة.

ثم توجه "منصف" صوب بناته قائلاً بالفرنسية: ´Voila، لأنه لم يخطر بباله شيء غير ذلك ليقوله.

لا شك أن "برايزينج" شعر بصدمة؛ رغم أنه من أشهر المؤمنين بالاختلاف الثقافي، وبعيد عن الشوفينية. وكانت ليبراليته نسبية.

في الوقت نفسه كان "برايزينج" مستعدًّا دائمًا أثناء نزهاتنا سيرًا على الأقدام أن يُلقي محاضرات من تلقاء نفسه عن أخلاقيات الفضيلة. إذ كان "برايزينج" من أشد المؤيدين لعلم الوسطية الذي وضعه أرسطو، وكان سعيدًا لأن الوسط في العلاقات الإنسانية ليس حسابيًّا. بل يمكن اتخاذ قرار بشأنه من حالة لأخرى. ولذلك كانت العوالم تصطدم ببعضها. أي أن الحرص هنا كان واجبًا. تلك كانت بالنسبة له حالة صعبة للغاية تستدعي التروِّي.

خشيتُ أن تكون شهرزاد المغربية هي النقطة التي كان يرمي إليها "برايزينج"؛ الغواية المثيرة. "برايزينج" يقف أمام ست فتيات قاصرات يعرضهن عليه أبوهن مثل اختيار الجبن في محلات "كرونين". القصة إذن توحي بأنها إباحية.

تابع "برايزينج" حديثه قائلاً:

- ولكن أصبح الأمر محرجًا وبدأ الرجل يفترض أن لدي تحفظات لأن بناته لسن جميلات بدرجة كافية، ويسألني ما إذا كنت أفضِّل أن يصرفهن

ليستدعي بدلًا منهن أبناءه الثلاثة، بينما رحت أنا أبذل الجهد كي أؤكد له أن الإشكالية هنا تكمن في عذاب الاختيار، فكل واحدة منهن فريدة من نوعها، وكنت في الواقع أبحث داخلي عن مخرج من هذه الورطة، فكيف لي أن أرفض عرضه كله دون أن أتسبب له في إهانة.

عندئذ نادى خادمٌ – ممتلىء وجهَه ببقعٌ حمراء – على "منصف داغفوس" ليخبره أن أحد مصانع الفوسفات المملوكة له قد شبَّ بها حريق. فتركني "داغفوس" في رفقة بناته؛ اللاتي رُحن يشملنني بأرق أنواع الرعاية التي تأسرك. وأكد لي الرجل وهو يرحل أنه سيعود بسرعة ليعرف من اخترت. إلا أننا لم نصل إلى هذا الحد، فبينما كانت البنات يحملن إليّ الشاي والحلوى تحت رقابة سيدة كبيرة في السن، كان "منصف داغفوس" يحاول أن يدفع العاملين لديه إلى موقع الحريق حتى يواجهوا النيران، وكان يُلوِّح بذراعيه ويصيح مطلقًا التهديدات البذيئة. ولما لم يفلح تطويح الأيدي والتهديد، أمسك بدلو مليء بالرمال وبمجرفة، وانطلق نحو المخزن المشتعل كي يقدم لعماله مثالاً يُحتذى به في الشجاعة، حيث انطلق مباشرة داخل موجة الضغط المنبعثة من انفجار هائل، أطاحت برأسه لتفصله عن بقية جسده، ودمرت مصنع الفوسفات والصاج المقوى والسير الناقل العتيق والحفارات الفرنسية والجرافات الأمريكية، لتتناثر في نطاق نصف قطر دائرة داخل الأراضي الصخرية.

وعندما ساق الخادم ذاته النبأ المفجع، توقعت انطلاق طقوس الحزن الشعبية المعهودة؛ وهي عبارة عن صرخات نحيب، وولولة مدوية، وشد الشعر، وخدش الوجوه التي حطمها الألم بسبب اللطم عليها، وحالات إغماء، وما شابه. ولكن بدلاً من ذلك تبادلت الأخوات الستة النظرات، ثم حملن أكواب الشاي والبراد الفضي، وودعنني حتى الشارع وأنا أحمل في يدي قطعة البقلاوة التي قضمتها بالفعل.

لم يكن بالإمكان التأكد ما إذا كانت قصص "برايزينج" حقيقية أم لا، ولكن ذلك لم يكن هو مربط الفرس، إذ كان "برايزينج" يهتم بالدرس المستفاد من القصة. فقد كان يؤمن بأن كل قصة تستحق السرد تحمل في طياتها عظة، وغالبًا ماكانت قصصه شاهدًا على رزانته ورجاحة عقله الذي كان يُباهي به كثيرًا، تلك الرزانة التي اعتبرتها الدكتورة "بيتشارت" في حاجة إلى علاج، وظلت تبحث لها عن المصطلح المناسب في علم النفس، بعد مرور ثلاثة أسابيع على إدخال "برايزينج" المصحة، فقد بدا التشخيص صعبًا، وكانت الأعراض غير واضحة، فضلاً عن تعددية النظرة للمريض، الذي كان يتأرجح بين كونه جذابًا وودودًا ليتحول فجأة إلى شخص يتسم بالعناد المُضني، وهو ما زاد الأمر صعوبة.

على عكس ذلك كان من السهل تشخيص اكتئابي المعتاد الذي اتسم في الوقت ذاته بكونه أقل إثارة للاهتمام. ولكننا، أنا و"برايزينج"، كنا متشابهين فيما يتعلق بعجزنا عن إدراك أنفسنا كأشخاص فاعلين قادرين على التصرف. إلا أنه نجح في اعتبار هذا النقص الواضح بمثابة الفضيلة، أما أنا فعانيت منه بشدة، غير أن أي محاولة لتغيير ذلك ستحتاج إلى مجهود.



استطرد "برايزينج" حديثه قائلاً:

- على أية حال، لم يكن مصدر القصة ذا مصداقية، كما كان سلوك "سليم مالوخ" لا يدع أدنى مجال للشك في أصله الذي لاغبار عليه، فقد أجلسني الرجل بكل احترام في الأريكة الخلفية لسيارة ليموزين فرنسية إلى جانب ابنته "سعيدة". ذكّرتني طريقة قيادته للسيارة في شوارع

تونس الوعرة التي كانت تشبه قيادة سفينة في بحر متلاطم الأمواج – بركوب الجمل – أما موضوع الجِمَال فسنأتي إليه فيما بعد.

- أغلق سليم الباب خلفي، وصعد خلف مقود سيارة دفع رباعي وقفت بجوارنا دون أن ألحظها، وانطلق وهو يضع التليفون على أذنه ويُلوِّح لي بكل وسامة. قال إننا سنلتقي مجدَّدًا مساء اليوم، وأكد أسفه لأنه مشغول للغاية اليوم، إلا أن "سعيدة" ستعتني بي وستقلّني إلى الفندق الذي تُديره، كي أقضي فيه ليلتي الأولى.

أشارت "سعيدة" لي بكل نُبل، مما أزال آخر ملامح الشك لدي بشأن أصل عائلة "مالوخ"، كي تلفت نظري إلى المعالم السياحية - التي كانت تظهر متسارعة من خلف زجاج السيارة الداكن – مثل طرف بحيرة تونس، وبعده ببضعة أمتار ميدان "الحبيب بورقيبة"، ومحل "جنرال"، وبعض الأبواب الرائعة. أدرتُ رأسي مُظهرًا اهتمامًا، كما لو أنني أرى كل ذلك لأول مرة؛ إذ لم يكن هناك داعٍ على الإطلاق لأن يعرف "مالوخ" أنني قضيت عدة أيام في تونس منذ أقل من عام تلبية لدعوة منافسه "منصف داغفوس".

توقفت السيارة في أحد الشوارع الجانبية لميدان النصر أمام مبنى مُكَوَّن من أربعة طوابق، مطلي بالجير الأبيض، ومزود بإطارات نوافذ زرقاء اللون، وعدد كبير من الأعمدة الرفيعة والزخارف المحيطة بها في

طراز "الموروني". فأعلنت "سعيدة" اسم الفندق قائلة: " L'Hotel d'Elisha" "فندق إليشا"، و"إليشا" المعروفة باسمها الروماني "ديدو" هي مؤسسة مدينة قرطاج وحاكمتها.

مطَّ "برايزينج" شفتيه بطريقته المعهودة وقطع سيره أكثر من مرة وقال:

- آه!! "ديدو" من بين كافة الآلهة وأشباه الآلهة.

هنا أكد "برايزينج":

- كانت "ديدو" هي الأحب إلى قلبي، بل ولعلها الأقرب إليّ، إنها هي التي أطلقت الشعار المطلق أن "كل شخص عليه أن يُقبل على الموت طواعية من أجل بقاء الوطن الأب". ولابد أنك ستلزمني هنا باستخدام لفظ المؤنث: الوطن "الأم" في حالة قرطاج لكونه المصطلح الأنسب.

قالها وقد توجه بنظره ناحيتي ثم تابع:

-إما أن يُقبل على الموت طواعية من أجل بقاء الوطن أو أن يدفع حياته على أية حال ثمن التخاذل عن حماية بلاده. وقد حل عليها هي نفسها الدور، وهي الملكة، وذلك من خلال موافقتها على الزواج من

"عاشرباص"، ذلك المتآمر الذي لا شخصية له، ابن "جرامانتيس"، الكاهنة الليبية، والإله زحل. وقد قبلت "ديدو" تلك الزيجة بغرض منع اجتياح قرطاج، ولم تتردد طويلاً، بل أمرت ببناء محرقة للجثث وإضرام النار داخلها، كما تظهر في تصوير رائع لـ"فرجيل" ومالبثت أن ألقت بنفسها فوق سيف، لينغرس في صدرها وهي على كومة خشب مشتعلة.

تابع "برايزينج" حكايته وهو يدفعني بيده المفلطحة، ويضغط بها على ظهري بين كتفي، كما لو كنت أنا من قاطع سيرنا، وقال:

- ومن هذه القصة يمكن استخلاص شيء مفيد لحياة رجال الأعمال، عندما يطلق رجل أعمال شعارًا، لابد أنني كون أول من يطبقه، وأن ينطبق عليه هو نفسه. فإذا صدر تحذير بضرورة الترشيد في استخدام ماكينات التصوير، لأن تكلفة النسخ عالية، فيتعين الإقلال من التصوير. وإذا استصعب أحدهم ذلك فليكف عن التصوير تمامًا.

راح الرجل يصفر باللحن الاستهلالي لأوبرا "ديدو" للمؤلف الموسيقي "بورسيل" وهو في رفقة سيدة الأعمال "سعيدة مالوخ" إلى فندق "إليشا". وقد أصر بكل عناد أن يطلق عليه "فندق ديدو"، بدعوى أن هذا الاسم هو الذي عرف الشعب مليكته به. كان طراز الفندق قديمًا ولكنه كان فخمًا في الوقت ذاته، مثلما صَوَّرته مجلات مختلفة وعديدة تحت

عامود الطراز المتميز "Hideaway"، ظل من الخارج يتسم بطراز المورو. إذ كانت تستقبلنا في الداخل جدران وأرضية مغطاة بالجبس المائل للزرقة، بها بعض المصاطب تُستغل بوصفها أماكن منزوية للجلوس. بينما تزينت الجدران برسومات قليلة لـ"ديدو" من عصور مختلفة.

هنا وهناك يظهر ذلك الطابع الأصلي للبلاد، أو بالأصح، ذلك الطراز الدولي المتخفي في صورة الطابع الأصلي، في صورة اقتباس صغير ساخر. لاسيما الجلد، الذي يُستخدم في تغطية المصابيح الموضوعة على الكومودينو بجانب الأَسِرّة، وبعض البلاطات المزخرفة المصبوبة في الأرضية الأسمنتية كما لو كانت قد تُركت هناك بالصدفة، حليات صغيرة مُعلقة هنا، وبعض الخشب المقطع هناك. بينما يتكرر دومًا عنصر جلد الثور وفق ما لاحظ "برايزينج" الذي كانت تعتريه سعادة العارف ببواطن الأمور حين يقول ذلك.

- جلد ثور.

كان الحماس لا يزال باديًا عليه وهو يحكي:

- جلد ثور، ديدو، جلد ثور؟ ديدو جلد الثور؟

هززت كتفي. بينما ازداد حماس "برايزينج" وقال:

- مشكلة رياضية معقدة يطلق عليها: "إشكالية ديدو!" .

كان يعرف شخصًا يُهديه بانتظام كتبًا عن ألغاز الرياضيات وعجائبها، مثل: "نظرية فيرما الأخيرة"، و"حدس جولدباخ"، و"مسألة البائع المتجول".

قرأ "برايزينج" الكتب لأنه يحب القراءة، لكنه لا يحتمل الوقوف أمام أرفف الكتب الممتلئة في المكتبات ليعاني من عذاب الاختيار، كما يقرأها لكي يتمكن من إبهار أشخاص مثلي بحكاياته المفاجئة من جميع أنحاء العالم.

لكن شخصًا مثلي لم يكن من السهل إثارة اندهاشه. ولا بد أنه فهم ذلك منذ وقت طويل. الأمر الذي ينطبق بالقدر ذاته على "برايزينج" نفسه. ورغم ذلك لم يرغب الرجل في إفلات فرصة سرد قصة "ديدو" وجلد الثور بشكل عابر وغير مقصود.

وبدأ يلقي محاضرته قائلاً:

- غادرت "ديدو" ورفاقها مدينة"صور"خوفًا من بطش "بيجماليون" وأثناء مرورها بقبرص أَسَرَتْ خمسين امرأة - وفي رواية أخرى ثمانين - ورسوا جميعًا على ساحل شمال أفريقيا. طلبت "ديدو" من السكان الأصليين هناك قطعة أرض لنفسها ولمرافقيها على ألا تتجاوز مساحتها ما يغطيه جلد ثور عند فَرْده. كانت تلك هي أمنية الأميرة الهاربة التي قوبلت بالإيجاب. إلا أن "ديدو" قصت جلد الثور إلى أشرطة رفيعة ورسمت بها نصف دائرة على مساحة كبيرة لتفصلها عن الشريط الساحلي".

كمّ هائل من القصص بشأن امرأة أسطورية جميلة – وقد ساورني الشك بأن "برايزينج" يفضل المرأة الأسطورية عن الحقيقية – جعل الرجل يسرع في خطواته، حتى امتدت نزهتنا سيرًا على الأقدام، كما طالت قصته.

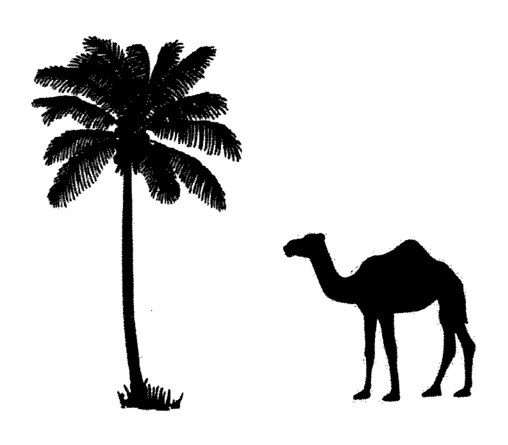
ثم قال "برايزينج":

- سأتجاوز ذكر العشاء الشهي في منزل "مالوخ"، الذي كان راقيًا، غريبًا. وزوجته très charmante ساحرة للغاية، وعصرية بدرجة تثير الدهشة. أما البيت، أو بالأحرى القصر، فهو تقليدي جدًّا مليء بأجهزة التليفزيون. كل شيء لطيف للغاية. ولكنه كان عشاء عمل، رغم أننا لم نتحدث عن العمل تقريبًا. سأُغفل ذكر ذلك، فهو لا علاقة له بالمسألة الفعلية. شأنه شأن زيارة السوق التي رافقتني "سعيدة" خلالها في صباح اليوم التالي. زيارة تأسرك من كثرة المغامرات والروائح، ولكن تلك حكاية أخرى، والألوان بالمناسبة خلابة.

ما علينا، وقت الظهيرة تقريبًا غادرتُ تونس في سيارة دفع رباعي. تولى أحد موظفي "مالوخ" القيادة. بينما جلست "سعيدة" إلى جواري، ومساعدها على المقعد الأمامي بجوار السائق. تركنا وراءنا ضواحي تونس، وبدأت أستمتع بالرحلة بسبب تلك الطبيعة التي تصير قاحلة أكثر فأكثر. كنا نقصد واحة "تشوب"، حيث تُدير "سعيدة" فندقًا فاخرًا آخر من

أملاك والدها. راحت "سعيدة" تناقش مع مساعدها ذلك الوضع الحرج الذي يمرّ به النظام المالي الإنجليزي. إذ انخفضت قيمة الجنيه الإسترليني في الأيام الماضية انخفاضًا هائلاً. وبات القلق كبيرًا بسبب احتمال غياب الضيوف الإنجليز في المستقبل. كان الوضع يبعث على القلق حقًّا، ولم يكن محتملاً في مثل تلك الأيام. إذ تكرر بشكل شبه يومي ورود تقارير عن فضائح جديدة. والأمر الذي بقي غامضًا هو تلك التشابكات والتربيطات فيما بين البنوك الإنجليزية وبعضها وبين المؤسسات الأخرى المهددة بالانهيار. "سعيدة" ومرؤوسها اللذان ينم حديثهما عن كفاءة عالية وفهم شديد للموضوع كانا يخشيان الأسوأ. أما أنا فكنت قررت قبل عدة أيام ألّا أُعير الأمر كله أي اهتمام. وحددت مبدًأ لنفسي يتمثل في استبعاد الأمور الغامضة مستعصية الفهم والتي تقع بعيدًا عن طائلتي، ولا أجعل منها سببًا للقلق، وهذا هو المبدأ الذي طبقته جيدًا حتى يومنا هذا.

الصحراء في حد ذاتها ربما تكون هي الطبيعة التي تتناسب معي في الأغلب. ذلك الخواء، والاتساع، والطريق المستقيم الذي كنا نسير عليه بُسرعة. وما إن تركنا الظهير الصحراوي المليء بالهضاب خلفنا وظهرت أمامنا أولى نباتات الصحراء الرملية الهائلة، حتى تركت أنا بدوري صخب المدينة وأحاديث "سليم مالوخ" المتملِّقة المستمرة، ووجْهَ "برودانوفيتش" القلق دائمًا.



عندئذٍ شَدَّني مشهد الجِمَال النافقة من تأملاتي العميقة للكثبان المتتابعة أثناء السير. ويبدو أن المشهد الذي لم يبعد عنا سوى ثلاثين مترًا، أفقدنا النطق للحظة، وجعل سائق سيارتنا يضغط على الفرامل بشدة كي يوقف السيارة. وقف وحش فِضّي بلا حراك، لم يكن سوى أتوبيس رحلات بمرآتين من الناحيتين، برزتا أشبه بأذني الفيل على جانبي الطريق، لتعكسا ضوء شمس الصحراء على الشريط الأسفلتي المظلم، حيث استلقى حوالي عشر أو خمسة عشر جَمَلًا، بعضهم فرادى، والبعض الآخر تكوَّم فوق بعضه، كانوا عبارة عن أعضاء وعظام وأسنمة مرتخية، تناثرت حول الأتوبيس المتوقف. بدت رقابها الملتوية والمرتخية بمظهر فظيع. بل إن أحد الحيوانات التفَّ حرفيًّا حول المحاور الأمامية المزدوجة للأتوبيس. وكانت رقبته ممتدة بطريقة غير طبيعية، وعالقة تتدلى فوق

الكاوتشوك الساخن للإطار الضخم، بينما سقط اللسان خارج الفم بين الأسنان الصفراء المكشوفة. كما برز أحد السيقان مائلاً صوب السماء بين الإطار والهيكل الخارجي للمركبة، والتوت الساق الخشنة لتُكَوِّن زاوية مدببة. انحشر الجسد بين كلا الإطارين بعد أن عجز عن تحمل الضغط، وتناثرت الأمعاء على الطريق.

تجمع حشد صغير من البشر حول الأجساد التي فارقتها الحياة. كانت الأجواء تتجاوز مرحلة التوتر. حاول بعض الجنود الذين يرتدون ملابس التمويه والبيريه أخضر اللون ـ تهدئة خمسة أو ستة من البدو الثائرين الذين كان بعضهم يحمل سلاحًا. وقد وقف وراء الجنود سائق أتوبيس الرحلات بقميصه الأزرق الفاتح ذي الأكمام القصيرة وهو يتصبَّب عرقًا ومُصَابًا بجرح قطعيّ في جبهته، وكان من جانبه يصيح، ويكيل ألوان السّباب لرُعاة الإبل.

ومن وراء ألواح زجاج الأتوبيس العاكسة بدت وجوه بعض السياح الشاحبة شبيهة بالرسم الكروكي، إذ كانوا يُحَدِّقون في المشهد وقد فتحوا أفواههم وألصقوا وجوههم بزجاج الأتوبيس، وراحوا يحاولون تسجيل أقصى قدر من هذا الموقف المعقد بكاميراتهم، حتى يتمكنوا من عرض الحكاية عندما يعودون إلى ديارهم.

أثناء ذلك، وصلنا في جولتنا سيرًا على الأقدام إلى السور الخارجي وانحرفنا تجاه الشمال، إلى طريق واسع مكسوّ بالحصى، يتبع مسار السياج الأصفر. دب شيء من الحياة داخل "برايزينج". إذ راح يُحرِّك يديه بحيوية ويُغيِّر سرعاته من حين لآخر، أي يتخذ خطوتين سريعتين وراقصتين. ثم تابع الرجل حديثه قائلًا:

- أطلقت "سعيدة" اثنتين من اللعنات، وهو ما كان غير متوقع منها. إحداهما بالإنجليزية والأخرى بالفرنسية، وكلاهما عند ترجمته حرفيًّا يعطي التعبير نفسه. ثم ترجَّلت من السيارة. وهو ما فعلناه أنا ومساعدها بدورنا.

وقف "برايزينج" ومرافقوه وراء الأبواب المفتوحة. لفحت الحرارة الملتهبة رؤوسهم. وأخذ الهواء يتمايل فوق الجِمَال النافقة والأسفلت الساخن، وبدت الصورة مهتزة للأجواء المتوترة، وصرخات نحيب مرهقة للأعصاب من أحد الجمال المحتضرة. طلبت منه "سعيدة" البقاء في السيارة، ثم تنحَّت جانبًا في رفقة مساعدها، وشقت طريقها تجاه المشهد المحتدم. وفجأة اخترق دويّ طلقة رصاص واحدة تلك الجلبة متعددة الأصوات. شاهد "برايزينج" كيف جذب الموظف "سعيدة" إلى الأرض، وقفز هو نفسه بأقصى سرعة ليجلس على المقعد الخلفي البارد وهو يغلق الأبواب بشدة. تنامت إلى مسامعم صيحات استهجان صادرة عن أتوبيس الرحلات، فضلاً عن صيحات عالية للجنود. لم يصمت سوى صرخات

الجمل المحتضر. كانت كل الأسلحة موجهة صوب رجل واحد أطلق رصاصة الرحمة بين عيني الجمل المنتحب.

عاودت "سعيدة" الوقوف، وأخذت تنفض التراب عن بدلتها الأنيقة، وتدخلت في النقاش. وظل "برايزينج" جالسًا في السيارة يتابع سير الأمور من مسافة آمنة. استحوذت "سعيدة" على زمام الأمور. واستخلص "برايزينج" أنها ذات إطلالة تنمّ عن كونها نشأت على التسلط؛ سواء هنا في الصحراء أو في شوارع تونس.

"كان الضجيج عاليًا وسادت فوضى عارمة، كما لم يخل الأمر من بعض العنف". هكذا وصف "برايزينج" الوضع باستياء واضح وتابع قائلًا:

- بل وتمادت الأمور دون أن تبدو أية بادرة للتوافق. في مثل هذه الأجزاء من العالم يتمتع الشجار بقيمة مختلفة تمامًا. كما يسير وفقًا لقواعد مختلفة تمامًا، لذا لاتحاول مطلقًا أن تتدخل، فالأمر لا أمل فيه، وأعدك بأنك ستقول دومًا الأشياء الخاطئة. وربما ينطوي ذلك من وجهة نظري على شيء جدلي. نقاشات لا لشيء سوى للنقاش. ولاتحاول مطلقًا أن تقول: "فلتحافظوا على هدوئكم"، و"دعونا نحلّ المسائل دون عصبية". فهذه العصبية هي تحديدًا الهدف.

ظل ينظر إليَّ بقلق للحظات، ثم تابع قوله:

- على أية حال أنا شخصيًّا أشعر بالملل دومًا من مثل هذا النوع من الشجار الذي لا يخلو من التوتر. فهو عادةً لا يؤدي إلى شيء. لذا طلبت من سائق سيارتنا أن يناولني في المقعد الخلفي مجلة "الفاينانشيال تايمز" الموجودة على تابلوه السيارة.

لم تتناول الصحف سوى موضوع واحد، لاسيما معاودة اشتعال الأزمة المالية بطريقة مفاجئة، خاصةً وضع إنجلترا الذي يتجاوز كونه حرجًا، والذي تفاقم من خلال انهيار بنك "رويال" في أسكتلندا الذي بلغ نصيب الحكومة فيه حوالي ثمانين بالمئة منذ بدء أزمة البنوك، وما هي إلا أربع وعشرين ساعة حتى أدت الأمور إلى فوضى قومية، ما هذا الهراء! بل فوضى عالمية، لأن مجموعة مصارف "ليودز" - التي تمتلك الحكومة حصة تبلغ سبعين بالمئة منها - انهارت في ركاب المصارف الأخرى، لاسيما أن تلك المؤسسات كانت تضارب بمشاركة عامة فيما بينها على قروض عقارية واهنة في "بنجلور" و"ملايا"، دون اطلاع الحكومة على ما يبدو. لدرجة أن محللي الصحف الرائدة أظهروا اقتناعًا بأن الحكومة الإنجليزية لن تكون أبدًا قادرة على ضمان ودائع مواطنيها. وأدت هذه التحليلات بدورها إلى قيام عاصفة لا مثيل لها لتجتاح جميع أفرع البنك بالمملكة. الجريدة التي كنت أُمسك بها كانت تُظهر تصويرًا لفرع بنك في "إلفراكومب"، تلك المدينة الصغيرة التي أعرفها بسبب إجازة قضيتها وأنا شابٌّ صغير بالدراجة في مقاطعة "ديفون". وبقيت عالقة في ذهني،

صورة بدا في خلفيتها مشهد الشجار والجِمَال النافقة الذي تراءى لي عبر لوح الزجاج الأمامي لسيارة الدفع الرباعي، بدا مشهدًا للسكينة والتناغم، فالإنسان يتحول إلى حيوان عندما يتعلق الأمر بمدخراته.

في الخارج قَدَّمَ راعي الإبل عرضًا مؤثرًا؛ إذ ارتمى فوق الجمل الذي صمت أخيرًا لأنه مات؛ وأخذ ينتحب بصوتٍ عالٍ يمسّ القلوب كما فعل حيوانه النافق لتوِّه، ثم مسح بكف يده على جفونه وأهدابه الشبيهة بأهداب النساء، ليغلق له العينين المتباعدتين عن بعضهما تمام الإغلاق. وبعدها نهض بكل خشوع، وخطا نحو الجثمان التالي، وانهار فوقه وانتحب، ثم أغلق عين الحيوان. كرر الرجل هذه الطقوس مع كل جمل على حدة، وكان يستغرق وقتًا طويلاً في كل مرة. اختنقت الأنفاس في حلق "برايزينج" وتملكه حزن شديد.

بينما كان "برايزينج" يقرأ الجريدة، انضم السائق إلى الآخرين وتركه وحده. شرح "برايزينج" الموقف قائلاً:

- هكذا بات الظرف مواتيًا لي في تلك اللحظة، لأن مثل هذا التأثر الذي غمرني قد يكون معوِّقًا في حضور شخص غريب.

أخذ سائق "سعيدة" يتفحص الأتوبيس الذي بدا وكأنه فيل ضخم من الصفيح. وكان يرافقه سائق الأتوبيس الذي علت وجهَه ملامحُ الخبراء، وراح يُعَاين شبكة السيارة المنبعجة، وأقدم على محاولة لا فائدة

منها كي يرد الإكصدام المدلى لأسفل إلى مكانه، بل إنه سحب مع سائق الأتوبيس ساق الجمل المتيبسة التي كانت تبرز صوب السماء. ثم تبادل بضع كلمات مع "سعيدة" وعاد بعدها إلى السيارة وجلس وراء المقود وهو يتنفس بصعوبة.

قال "برايزينج":

- هذا ليس طبعي على الإطلاق، لاسيما التدخل في شئون غريبة عني، لكن حزن قائد القافلة وألمه تملَّكاني بشدة؛ لدرجة أنني لم أتمالك نفسي للحفاظ على مسافة البعد والكياسة في مواجهة هذه الأحداث الغامضة والتي ظلت مستعصية الفهم عليّ تمامًا. لذا طلبتُ من السائق أن يشرح لي الوضع في الخارج - وكان بالمناسبة يتحدث الفرنسية بطلاقة - فأجاب بأن القصة ليست جيدة على الإطلاق، إلا أن الرجل هو من جرَّ هذه المصيبة على نفسه، فالحكومة لم تمنع سير الإبل في الطريق السريع من فراغ، كما أن سائق أتوبيس الرحلات وهو يسير في طريق منعطف لم يتمكن من أن يرى الجِمَال إلا متأخرًا. وأفاد بأن "سعيدة" حانقة للغاية. فالأتوبيس - من جانب - ملك لـ"إبراهيم مالوخ"، أحد أبناء عمومة "سليم مالوخ"، كما أن صاحب الجِمَال ليس مُؤَمَّنًا عليه، ومن جانب آخر فإن ركاب الأتوبيس نزلاء في فندق "مسيو مالوخ"، وربما تفوتهم الطائرة العائدة بهم إلى ديارهم، مما يعدّ بمثابة تعكير لصفو السعادة والمتعة

التي عايشوها أثناء إقامتهم في واحة "تشوب". ولكن الأسوأ يتمثل في أن هناك نزلاء آخرين في الفندق ينتظرون - بلا طائل - رحلة ركوب الجِمَال التي حجزوها، لأن الجِمَال قضت نَحْبها على الطريق، ولم يعد واضحًا على الإطلاق من الذي سيتولى مسائل ركوب الجِمَال للضيوف في الأيام التالية.

أخذ برايزينج والسائق يُحَدِّقان في الشارع أمامهما حيث بدأ بعض الرجال يسوقون الجِمَال من سيقانها بعيدًا عن طريق السيارات، بينما ظل صاحب الجِمَال - الذي يغمره الغبار - يحرك الجزء العلوي من جسده المغطى بقماشة بيضاء اللون؛ جيئةً وذهابًا، وهو ينظر إلى المشهد دون المشاركة فيه.

قال السائق بالفرنسية: Lepauvre, ilest ruine completement (لقد حطمه الفقر تمامًا)، ثم قال إنه لن يتمكن مطلقًا من أن يقف على قدميه مجددًا. بعدأن فَقَدَ كل جِمَاله مرةً واحدة. وجوده بالكامل Complètement ruiné، (دُمِرَ تمامًا). سأل "برايزينج" عن سعر الجمل، فقال السائق:

- ربما ألف ومائة أو ألف ومائتان. بل وأحيانًا ألف وثلاثمائة فرنك.

أضاف "برايزينج" على الرقم أربعة عشر ألفًا أو خمسة عشر ألف فرنك. هذا هو المبلغ الذي يتوقف عليه وجود ذاك الرجل، وجود عائلة بأكملها. لم يتمالك "برايزينج" نفسه.

- حينذاك جلس ذلك الرجل أمامي في التراب وهو يبكي جِمَاله، ويبكي حياته وفرنكاته الخمسة عشر ألفًا. خمسة عشر ألف فرنك، كان هذا هو الرقم الذي أعلنه له "برودانوفيتش" بكل فخر على هامش اجتماع الموازنة العامة. خمسة عشر ألف فرنك، هذا هو المبلغ الذي أجنيه من الشركة يوميًّا. فقط حصتي من الشركة، دون احتساب راتبي عن منصبي كرئيس مجلس إدارة، ودون حصصي الأخرى وعقاراتي وكل شيء آخر من شأنه أن يدرّ عليَّ الأموال. خمسة عشر ألف فرنك في اليوم هو نفس المبلغ الذي تحطم هذا الرجل بسببه. ما الذي منعني من مغادرة السيارة والنزول والتوجه إليه كي أعطيه النقود ليشتري جِمالًا جديدة؟ ما الذي منعني؟!!

لا أدري على الإطلاق ما الذي منعه من النزول وإعطاء الرجل المال، لكنني كنت متأكدًا من أنه سيعلن لي فورًا عن أسبابه. فلطالما وجد "برايزينج" أسبابًا لأفعاله.

حينئذ أوضح "برايزينج" قائلاً:

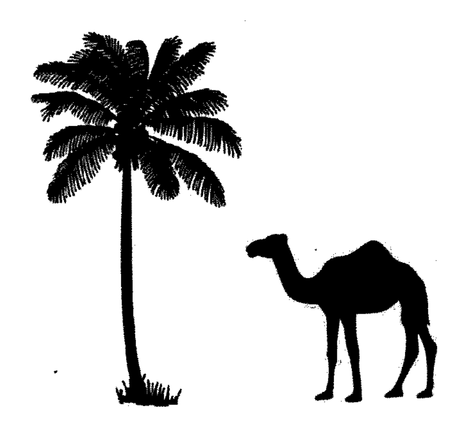
- منعني أمران، "برودانوفيتش" و"سعيدة". ألن تعتبر "سعيدة" تلك اللمسة من جانبي بمثابة الإذلال؟ أو تدخل غير لائق؟ ألم يسبب لها هذا الرجل الذي كنت أرغب في غمره بكرمي وسخائي إحراجًا شديدًا من جرّاء عدم حرصه الزائد؟ ترى ما هو الانطباع الذي سينشأ إذا ما كنت أرغب في مكافأته على ذلك أيضًا؟

- كان الموقف محرجًا يتطلب التروي والتفكير. ثم تذكرت جلسات اللجان الخيرية التي كان "برودانوفيتش" يديرها والتي كنا نوزع خلالها نسبة من أرباحنا على مشروعات المساعدة ودعم الثقافة.

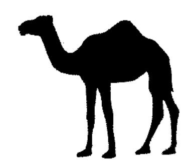
- ظل "برودانوفيتش" يمتنع عامًا وراء الآخر عن تقديم فرنك واحد إلى أفريقيا. بدعوى أن هذه القارَّة غارقة لأذنيها في معوناتنا، فأفريقيا أشبه بالقارَّة المشلولة بسبب أموال المعونات. لذا يتعين عليها أن تنتشل نفسها من هذا المستنقع بمجهوداتها. لكنني أعتقد أنني أستطيع أن أتذكر أن "برودانوفيتش" كان يعني في المقام الأول أفريقيا الكائنة جنوبي الصحراء. ألا ينطبق ذلك بدوره على تونس؟ ألن أتسبب بأموالي في إصابة هذا الرجل بالشلل؟ وأسلبه إمكانية تحرير نفسه من فقره، والإقدام على خلق مستقبل لنفسه، انطلاقًا من القوة الكامنة بداخله؟ ولكن يكفي النظر إلى كتفي الرجل المهتزتين كي أفهم أن المساعدة هنا في محلها. أيًّا كان رأي "برودانوفيتش"، حتى وإن كان ذلك من شأنه أن يمثل خطر

خداع مضيفتي، فلن يكلفني الأمر سوى القليل، كما أنني قادر على صنع فارق حقيقي هنا. كنت قد اتخذت قرارًا. بالطبع لم يكن في حافظتي خمسة عشر ألف فرانك أو حتى ستة وعشرين ألف دينار تونسي. هل كان عليّ أن أطلب منه أن يُدوِّن لي رقم حسابه البنكي حتى أتمكن من تحويل المبلغ له؟ ولكن هل يمتلك هذا الرجل حسابًا بنكيًّا أساسًا؟ أم ينبغي أن أتوجه معه إلى أقرب سوق للجمال وأشتري له ثلاثة عشر جملاً؟ ولكن هل أستطيع أن أشتري في سوق الجمال التونسي ببطاقة الائتمان؟!

قطعت "سعيدة" صراع "برايزينج" حين جلست إلى جواره وهي تعتذر باقتضاب عن العطلة، ثم أمرت السائق بمواصلة السير. في جوّ عامّ متوتر ترك "برايزينج" السائق يقلّه وهو ما زال متأثرًا للغاية من منظر أتوبيس الرحلات المحطمة على جانب الطريق والجِمَال النافقة وصاحبها التعيس. وسرعان ما تراءت أمامه مزارع نخيل البلح الممتدة عبر واحة "تشوب". بينما هزت رياح الصحراء قمم النخيل داكنة الخضرة، وبدا الأمر عن بُعد كما لو كانت الأمواج تجمعت على سطح بحيرة باردة.



2



كان منتجع "ألف ليلة وليلة" في واحة "تشوب" أقرب إلى مستوطنة مؤقتة للبربر، أو هو بالأحرى مستوطنة بربر نمطية، كما يتصورها السياح التقليديون (أرباب الطبقة المتميزة) الوافدين إلى تونس، بناءًا على الأبحاث التي يجرونها على سوق السياحة، إذا كانت لهم تصورات على الإطلاق. ولم تتشكل تصوراتهم بناءً على أفكار واحدة من مصممات المنتجعات السياحية المشهورة عالميًا، من مواليد مدينة "ماجدبورج" الألمانية، إذ إنهم ليسوا إلا صفحات بيضاء لا دراية لهم أو مجرد وعاء خاوٍ.

توزعت الخيام البيضاء الراسخة بكثرة في الفراغات بين بستان النخيل، بينما تجمعت بعض الأبنية ذات الأسوار التي تضم المطاعم والحانات لتُشَكِّل مجموعة خلابة حول حمَّام سباحة طبيعي كبير الحجم، كما أحاط بالمرفق من ثلاثة جوانب سور من الحجر الجيري، غطت قمته شظايا الزجاج الأخضر.

إلا أن القطعة الأهم كانت هي بلا شك مرفق المنتجع الكائن على الحافة الشمالية من الواحة؛ حيث كان يحتل مكانه بين الكهوف التي كانت تُستخدم قديمًا لتبريد حليب الإبل أو ما شابه، في موضع ارتفع فيه جدار من الحجر الرملي بانحدار شديد، لاسيما في زمن استخدم فيه الناس أيديهم العارية في الحفر، حينما كان الناس القاطنون في هذا المكان لا يزالون يعيشون حقًّاً ولا يجنون المال من أولئك الذين يقضون إجازتهم. ثم جاء اليوم الذي واجهوا فيه الخيار بين أمرين: إما التخلي عن حياة المزارعين ورعي الإبل نظير الحصول على وظيفة في منتجع "سليم مالوخ"، وإما الرحيل إلى مكان آخر، وهو ما يعني عادةً أن تتكدس الأسرة بأكملها في شقة صغيرة بمنطقة مترامية الأطراف من تونس أو صفاقس أو قابس، على أمل أن يحصل فرد واحد من العائلة على عمل؛ يتمثل في تجميع مكونات إلكترونية لشركة أوروبية تحمل اسمًا ديناميكيًّا وغريبًا، مثل "بريكسينج". ويمكنهم كذلك أن يجمعوا كل مدخراتهم ليراهنوا على حصان يتعين على أكثر شباب العائلة شجاعة وإحباطًا أن يمتطيه. كان هذا الحصان يتمثل في قارب ليس صالحًا للإبحار بدرجة كافية في العادة، ومكتظٌ دائمًا. وكان الذي ينجو من رحلة عبور البحر، ربما وجد دخلًا في أوروبا، يستطيع أن يرسل منه شيئًا إلى دياره نهاية الشهر. وإذا بقي في الغربة ووجد امرأة تُذَكِّره بوطنه وأنجب أطفالاً،حينئذٍ، نعم؛ ربما يظهر ذات يوم في المدرسة

أطفال مثل "برودانوفيتش" ليصبحوا عبرة.. استيعاب ونجاح، من يتمتع بالجرأة هو الذي يفوز، يمكنك ذلك! نعم، حتى أنت!

لقد لاقى المنتجع إعجاب "برايزينج" على أية حال.

"وبرغم نفوري من مشاركة الغرباء غرفة ما وأنا عارٍ ومتعرق، إلا أنني أخذتُ بعين الاعتبار إمكانية الخضوع لهذا العلاج، والاستفادة من مغارة البخار في ليلة صحراوية باردة، خاصةً أن كل شيء بدا مُنَظَّمًا جدًّا؛ إذ تغطى معظم الضيوف الذين كنت قد التقيتهم في جولة قصيرة، بتحفظ شديد، بمناشف كبيرة مصنوعة من القطن المصري".

أما الضيوف الآخرون فقد كان أغلبهم من الإنجليز. حيث اكتشف "برايزينج" بسرعة أنهم كلهم تقريبًا ضمن مجموعة واحدة كبيرة. ربما يكونون ستين أو سبعين شخصًا هم من يشغل الجانب الأعظم من الخيام الفاخرة، لكنه لم يدرك بسهولة أنهم مجموعة واحدة، فهم تركيبة غير متجانسة. لولا أنه عقد أول تعارف له بعد وصوله بساعات قليلة فقط، مما شَكَّلَ مدخلاً إلى تفاصيل التركيبة الاجتماعية في المنتجع.

جلستُ لتوِّي على شرفة الباي ومعي كتاب في يدي، مكان كشفتُ عنه النقاب أنا و"بيبا". و"بيبا" هي إحدى معارفي التي أريد أن أحكي لك عنها حالاً. أما المكان فهو عبارة عن شرفة صغيرة تعلو النادي الصحي الذي يمكن الوصول إليه عبر درجات، عبارة عن بعض الحجارة المكوَّمة فوق بعضها. ويضم فراشًا شرقيًّا بأعمدة مزخرفه تكسوها ستائر بيضاء، ومزود بمرتبة مريحة للغاية وكثير من الوسائد من كل الأشكال والأحجام، كلها مكسوة باللون الأبيض. أي أنه مكان يمكنك فيه أن تُلقي نظرة بعيدة على الصحراء من فوق قمم أشجار النخيل، واستقبال نسمة هواء باردة من حين لآخر. حينئذٍ سمعتُ وقع أقدام حافية على درجات سلم الحجارة، فاعتدلت في جلستي على الفور، لأنني كنت أشعر بالخصوصية الشديدة، كما كنت على راحتي تمامًا وسط الوسائد الملقاة هناك. ولم أتعرف في البداية من وراء حافة كتابي سوى على شعر منمق قصير يكسوه الشيب. ثم ظهرت سيدة في مثل سِنِّي، بدا أنها مُجْهَدة من صعود درجات السلم شديدة الانحدار، لأنها كانت تحافظ على توازن إبريق ماء ثقيل وكوب بإحدى يديها، بينما أمسكت في اليد الأخرى بزوج حذاء صيفي جديد مفتوح مصنوع من الجلد.. تقريبًا لم يلبسه أحد من قبل، وبه سير يلفّ حول الأصابع، وكانت تحاول جاهدة ألا تفقد الكتاب الذي تضعه أسفل ذراعها. أعتقد أن الظروف الشاقة تسببت في أن تلوي ملامح وجهها للحظة قصيرة مما منحه تعبيرًا بخيبة الأمل لا يخطؤه أحد،

عندما لمحتني لأنها اختارت هذا المكان بسبب انعزاله مثلي تمامًا. على أية حال استعادت تماسكها ثانيةً، وحَيَّتني بكل أدب. وضعت الإبريق والكوب على الترابيزة الجانبية الصغيرة، وبكل تحفُّظ سألت باللغة الإنجليزية: "may I?" ثم جلست على الطرف المقابل من المرتبة دون أن تنتظر مني إجابة. وضعت ساقًا فوق الأخرى وفتحت كتابها لتستغرق في مطالعته دون أن تعيرني أي اهتمام. تَصَنَّع كلانا التركيز لأنه كان من الواضح أن كلينا من نوعية البشر التي لم تعتد مشاطرة أغرابٍ المرتبة.

وما إن نَحيَّتُ كتابي جانبًا لفترة وجيزة كي أنظف نظارتي حتى ضبطتها وهي تلقي نظرةً جانبيةً على ما أقرؤه. ثم قالت وهي ترفع غلاف كتابها عاليًا: "We seem to have the same interests" أي أن لنا الاهتمامات نفسها؛ إذ إننا كنا نقرأ رواية "مولد النسيان" للكاتب التونسي "محمود المسعدي". كانت هي تقرأ الترجمة الإنجليزية وأنا أقرأ الترجمة الألمانية. وكانت البائعة في المكتبة التي أرتادها قد باعتها لي عندما عرفت بشأن رحلتي إلى تونس، وقالت إنه أهم أعمال الأدب التونسي المعاصر إن لم يكن أهم أعمال الأدب العربي المعاصر.

لطالما كانت الكتب تُشَكِّل مدخلاً رائعًا للحديث، فقد عبَّر كلّ منّا عن رأيه بشأن ما قرأناه بالفعل دون عناء، وأبدت هي إعجابها، بينما لم

أرغب أنا في الالتزام برأي، كما أنها سبقتني بكثير، ثم خلعت نظارتها الداكنة لتُظهر لي عينين زرقاوين جذابتين. كانت عيناها هي الشيء الوحيد الذي جذبني في مظهرها بأكمله. إذ كانت متوسطة الطول وهيئتها غير لافتة للنظر. ولم تعد أردافها تتمتع برشاقة أرداف الفتيات الشابات، كما أن أعلى ذراعيها لم يعد مشدودًا، وكانت تسريحتها مثل تلك التي تتزين بها النساء المثقفات في شمال أوروبا عندما يشعرن أن السن قد تقدم بهن ولا يليق بهن الشعر الطويل. لم تكن تضع ماكياجًا تقريبًا، أما ملابسها فكانت تدل على ذوق راقٍ وخالٍ من التعالي، كانت ملابس من القطن والكتان، مصنوعة على ما يبدو بطريقة لا تضرّ بالبيئة. قدَّمَتْ نفسها لي قائلة: "فيليبا جريلينج" ثم مدت لي يدها لتصافحني بعد أن طلبت مني أن أناديها باسم "بيبا".

كانت إذن هي المدرِّسة الإنجليزية "بيبا جريلينج" التي عرَّفت "برايزينج" على تركيبة نزلاء المنتجع. خطوة عَلَّقَ عليها باستشهاد قصير لرسم ملامح ذلك المجتمع المقيم في منتجع شاطئ ألماني صغير، نزل فيه الأمير تشرباسكايا بطل رواية "أنّا كارنينا" ذات مرة بغرض الاستشفاء.

الذي جمع "بيبا" و"برايزينج" أنهما لم يتخيرا بمحض إرادتهما الإقامة في منتجع "ألف ليلة وليلة"؛ فهي هنا لأن ابنها قرر الاحتفال

بزواجه في هذا المنتجع التونسي الكائن بالواحة، ودعا لهذا الغرض خصيصًا سبعين من الأصدقاء والأقارب وجلبهم بالطائرة. وأفادت "بيبا" دون أن تُخفي ارتباكها أن هذا هو ما يتصوره الآن زوجان شابَّان يعملان في المدينة بشأن حفل الزفاف المناسب للمستوى، فابنها "مارك" وزوجته التي اقترن بها لتوِّه يُشَكِّلان إذن قلب هذه المجموعة الكبيرة التي لفتت نظر "برايزينج" عند حمَّام السباحة، شباب في نهايات العشرين أو بدايات الثلاثين من العمر، أصواتهم عالية، وواثقون من أنفسهم، ويتسمون برشاقة، وأثر تدريبات اللياقة البدنية واضح على أجسادهم. كان الرجال يرتدون شورتات بلون الرمال الأصفر، وقمصان "بولو"، وأحذية "موكسان"، بينما ترتدي النساء بلوزات مكشوفة بلا أكتاف، وشورتًا ضيقًا تبرز منه سيقانهن الناعمة والمكتسية باللون البرونزي من كثرة التعرض للشمس، وينتعلن أحذية صيفية مفتوحة لتبدو منها أقدامهن مقلمة الأظافر والمعتنى بها. ومن كان يتجاسر على القفز في الماء كان يرتدي مايوهات مثل تلك التي نراها في الصور والتي يعرضها بيت الأزياء "مارثا فينارد" للشاب "جورج كنيدي" على الشاطئ، أو كنَّ يرتدين بيكيني ساخنًا يُظهر البطون المستوية ويتطلب حلاقة الأماكن الحساسة، فكن كالعاريات. وظل "برايزينج" يصادف مجموعات مُصغرة منهم في كل مكان في المنتجع بأكمله.

كانوا يتبادلون النكات عند البار، ثم يختفون وهم يتبادلون القبلات بلا تحفظ، ويدسون أيديهم بالتبادل أسفل حافة الشورت القصير، وفي خيامهم المكيفة كانوا يصدرون التعليمات إلى أفراد الخدمة بكل ثقة، أو يتجولون بين أشجار النخيل ويطلقون اللعنات، وهم يبحثون عن استقبالٍ أفضل لأجهزة التليفون ماركة "بلاك بيري" التي يحملونها، إذ تُحَتِّم عليهم رواتبهم أن يكونوا متاحين في أي وقت وكل مكان. تعجب "برايزينج" من أن يتحمل الوضع المالي في لندن غياب خمسين من الكفاءات الشابة. ولكنه فَكَّر أنه ربما لم يعد بالإمكان إنقاذ شيء، واختار هؤلاء أن ينجوا بأنفسهم في هذا المكان.

كان هذا تصورًا وجده "برايزينج" مُسليًا، ويبدو أنه حاول أن يتسامر مع "بيبا" مُستعينًا به، إلا أن صوت "شخرة" مقززة صدر عنها، ما صدمه للحظة قصيرة حتى أيقن بشيء من الراحة أن هذا الصوت كان موجهًا إلى الجمع الجالس عند أقصى جنوب حمَّام السباحة.

قالت "بيبا" إن التدرج الاجتماعي يبدأ عند طرف الحمام الشمالي، فهناك تجلس "كيلي" وأخواتها الممتلئات مثلها، ومعهن أطفالهن بالمايوهات الملونة، الذين كانوا يقفزون في الماء، وهم يصرخون بلا تعب، ثم يخرجون ليعاودوا القفز ثانيةً وسط الصرخات والصيحات، ويثيرون حنق أمهاتهم برشّ الماء، الذي يبلل مجلاتهن النسائية التي يطالعنها.

وبعد عدة محاولات فاشلة لمصادقة أبناء المدينة، ابتعد "ويلي" شقيق "كيلي" - الذي كست شمس تونس صدره باللون الأحمر - في عوامة صفراء كبيرة الحجم وهو يبذل مجهودًا في التحكم فيها، مستعينًا ببعض زجاجات البيرة ماركة "هاينكين". ترى كيف كان شعوره الآن في ظل هذا الترف الذي يحيط به، والذي يرجع الفضل فيه إلى شقيقته وزوجها الجديد، والذي لم يكن ليتمكن من توفيره لأسرته دون زواج شقيقته. فقد قضى اليوم وهو يتظاهر بشعور قوي بالاحتقار تجاه هذه المجموعة، الأمر الذي تبعه شعور بالسكينة. لا بد أنه فكر أن ذلكِ Different world (عالم مختلف)، بل وكوكب مختلف Evenadifferent planet، كوكب القردة. فقد اعتبر هؤلاء الشباب الجالسين عند أقصى طرف حمَّام السباحة بمثابة القردة. وكان يُطلق عليهم بالإنجليزية The young ones أي الشباب، رغم أنهم جميعًا في سِنِّه تقريبًا، ولكن ما الذي يعرفونه عن العالم الحقيقي. فهو ملزم بإعالة ثلاثة أطفال. كما أنه معجب بالمايوه المميز برسومات الوشم.

قالت بيبا:

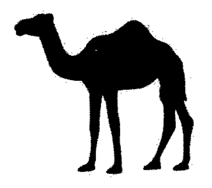
- لم يجلس زوجي على حمَّام السباحة سوى مرة واحدة. ولمدة كافية كي يثبت النظرية التي تفيد بأن مستويات الدخل يمكن معرفتها من

ألوان المايوهات لهذا الجيل، إذ قال إنه كلما ازداد اللون تحفظًا، ارتفع الرصيد بما يكفي لتغطية الشيكات.

ثم أضافت معتذرة:

- "سانفورد" عالم اجتماع.

وأعلنت "بيبا" أنها كانت تتمنى حقًّا أن تُصادق والِدَيْ "كيلي" اللذين لا تعرفهما تقريبًا. ولكن "ماري" و"كينيث إيبستون" لم يتحملا تغيير الطقس من ليفربول إلى "تشوب" أو على الأصح من كونهما خبير بمصنع للعِدَد وربة منزل إلى كونهما والدي العروس في حفل الزفاف الذي تكلف مائتين وخمسين ألف جنيه إسترليني، لذا آثرا البقاء في خيمتهما المكيفة.



أوضح لي "برايزينج" الأمر قائلاً:

- لم تكن "بيبا" راضية على الإطلاق، وكان ذلك واضحًا. كانت غير راضية عن اختيار ابنها لوظيفته، وغير راضية عن تصرفاته، وعن ضرورة إقامة حفل الزفاف في منتجع فاخر في تونس. إلا أنها تحمَّلت شعور عدم

الرضا بهدوء مرح يتناسب مع طبيعتها الودودة وعقلها الراجح. أما أنا فلم أتمكن سوى من مراعاة الأعراف، لذا هنأتها بزفاف ابنها. فشكرتني بضحكة ساخرة مقتضبة.

ثم استطرد قائلاً:

- كنت أنا إذن من أفسد الجو المرح عندما سألتها ما إذا كان "مارك" هو ابنها الوحيد أم أنها مرت كثيرًا بمثل حفلات الزفاف تلك. فأجابت بالنفي وقالت إن "مارك" هو ابنها الوحيد أو على الأقل الوحيد الذي ظل على قيد الحياة؛ إذ توفيت ابنتها الكبرى، "لورا" قبل ثلاثة أعوام، في مكان لا يبعد عن بحر الشمال، في قلب إحدى السفن العائمة في النرويج حيث كانت تعمل أمينة مكتبة. قالت "بيبا" إنها احترقت مع بضع مئات من الروايات البوليسية الإسكندنافية ونسخة كاملة لأعمال "ستاندال" التي تسببت في إشعال النيران عندما التصقت بفتحة تهوية معطوبة.

لقد فاجأتني الطريقة التي تحدثت بها عن وفاة ابنتها. كما لو كانت تحكي حكاية عادية، تصف فيها كيف أصيبت بجرح غائر أو فقدت إحدى عقلات أصبعها. ولكن ربما يكون الأمر هكذا قابلاً للمقارنة بفقدان أحد أعضاء الجسم، عملية بتر نتيجة لحادث غريب. ثم قال "برايزينج":

- يصعب على شخص مثلي، لم يكن لديه أطفالم مطلقًا، أن يتخيل ما يعنيه فقدان أحدهم.

ظل "برايزينج"واقفًا عند مقعد خشبي صغير مستندًا على سور أصفر اللون، وقال دون أن ينظر إليّ:

- أنت في المقابل تعرف معنى ذلك.

- لا؛ لا أعرف.

لقد اختلط الأمر على "برايزينج". لا يمكن أن تعرف معنى الفقد لمجرد أنك عايشت بعض المواقف. وأنا لم أكن أنتوي جمع الخبرات في هذا الشأن. فهناك أمور أرى أنها ليس لها مغزى لدرجة أنها لا تستحق منحها معنى أو أهمية.

جلس "برايزينج" على المقعد، ووضع ساقيه إلى جانب بعضهما، وأسندهما على الحصى، بينما وضع يديه على ركبتيه. منحني الوقت الكافي كي أنهي حديثي. كان بإمكانه أن ينتظر طويلًا لهذا الغرض. وأنا لم يكن لدي أقل احتياج لذلك. فقلت - وأنا أسحب أحد كراسي الحديقة الحديدية:

- تفضل، حكايتك.

نظر إليّ بقلق وتابع قائلاً:

- كان من الصعب على "بيبا" أن تتخيل طبيعة المجموعة التي كانت ابنتها ستنضم إليها. ثم قالت إنه من المحتمل أن "لورا" كانت ستقضي اليوم بطوله هنا بأعلى. ولكن الاحتمال الأكبر أنهم ما كانوا لينجحوا في إقناعها بمرافقتهم من الأساس. إذ لم تكن "لورا" تحب البلاد الدافئة ولا المجتمعات الكبيرة ولا حتى الصغيرة في الواقع. لم تكن تهتم بالرفقة كثيرًا. لذا ازدادت دهشة والديها حين أعلنت لهما أنها حصلت على وظيفة أمينة مكتبة على متن إحدى السفن، وسوف تقضي سنة على الخط الملاحي النرويجي للسفن العائمة جيئةً وذهابًا. وقالت "بيبا" أيضًا إن "لورا" لم تتفهم على الإطلاق اختيار أخيها لوظيفته، فهي لم تكن تحب الأشخاص الذين ينشغلون كثيرًا بالمال.

بدا ذلك في مجمله وصفًا مثيرًا للاهتمام لفتاة شابة، واستطعت أن أتصور جيدًا كيف تكون "لورا" ابنة لها. وقال "برايزينج":

- انتابني شعور بأن "بيبا" تحب الحديث عن ابنتها، مما شجعني على أن أواصل سؤالها. فقلت لها إنه ربما يكون من الأسهل على الشباب أن يعرفوا ما لا يحبونه، عن أن يعرفوا ما يحبونه، أو على الأقل هذا ما حدث لي وأنا شابّ. وسألتها ما إذا كانت هي - أعني لورا - تعرف ما تحب؟ فأجابت "بيبا" قائلة:

- آه؛ نعم بكل تأكيد، الدول الباردة، والطقس السيئ، وكُتب "سيبالد"، والرجال شديدو المراس.

ثم ضحكت.

بعد ذلك قضيا فترة طويلة صامتين، هذا على حد زعمه على الأقل. وكانت "بيبا" هي التي بدأت الحديث مرة أخرى بملحوظة ذكية عن صعوبات حفل الزفاف، ولكن "برايزينج" لم يعد يتذكر فحوى هذه الملحوظة، كل ما يذكره أنها كانت ملحوظة ذكية. وتابعت قائلة:

- إنه احتفال صعب، خاصةً إذا كان صاحبه ليس متدينًا، لذا يلغي إمكانية عقد رباط أمام الله بكل الطقوس التقليدية.

وأيد "برايزينج" كلامها وأفاد بأنه هو شخصيًّا لم تُتح له الفرصة كي يتزوج، أو أنه لم يتمكن مطلقًا من اتخاذ قرار بالإقدام على هذه الخطوة؛ وهو وصف أقرب إلى المسألة بكل تأكيد.

"برايزينج" سَلّى "بيبا" بسرد بعض حكايات زفاف عدد من معارفه، وردَّتْ هي عليه بتصوير حي لحفل زفافها هي شخصيًّا. إذ حكت له كيف قررت هي و"سانفورد" آنذاك الاحتفال بزواجهما في نادي اجتماعي كائن في "لافبورو إستيت"، تلك المؤسسة الاجتماعية في حي

"بريكستون" اللندني، لحاجتهما الشديدة لدرء أية شبهة برجوازية عن الاحتفالية. وهو مبنى كان عمره آنذاك عشر سنوات، لكنه رغم ذلك كان عبارة عن كشك أسمنتي، طلاؤه متقشر، يقبع في ظل بنية سكنية ضخمة، تنبعث منه رائحة التبول والملابس المتعرقة. مكان افترض مخططو المدينة أنه بجدرانه المطلية بألوان مبهجة سوف يصبح ذات يوم مركزًا لمدينة نابضة بالحياة ومتعددة الثقافات تقام بها احتفاليات صيفية مسائية يلتقي خلالها سكان المنطقة ليتبادلوا الأطعمة الباكستانية والكاريبية والغانية والأيرلندية، إلا أن هذا المبنى لم يخدم أي غرض سوى توفير مكان لعصابات الشباب كي يمارسوا فيه حفلات الاغتصاب الجماعي من حين لآخر، فضلاً عن توزيع الملابس المستعملة على الفقراء يوم الثلاثاء الأول من كل شهر.

- كان سكان الأبراج الشاهقة يمرون بنا وهم يهزون رؤوسهم، لا يُصدقون أن هناك من يحتفل بزفافه في هذه الأجواء. بينما كان الصبية داكني البشرة يضغطون أنوفهم على لوح الزجاج ليحملقوا في الأشخاص الذين يرقصون بكل أريحية. استأجرنا طاهيًا من جبال التبت حاول توزيع مخبوزات "التسامبا" وشاي الزبد على المدعوين، الذين تمسكوا بمشروب البيرة المتوافر بكثرة. وسرعان ما أصبحوا جميعًا سكارى، لأنه لم يكن هناك أي شيء يتناولونه سوى مخبوزات "التسامبا"، ولم يفلح أمر التضامن مع شعب التبت أكثر من ذلك.

وأضافت "بيبا":

- إن الميزة الوحيدة تمثَّلت في أننا سرعان ما انفردنا بأصدقائنا؛ إذ غادر أقاربنا وآباؤنا وأجدادنا وخالاتنا وأعمامنا الاحتفالية قبل أن يحلّ الظلام، لأنهم كانوا يخشون أن يتعرضوا لطعنات السكين والسرقة أثناء خروجهم من هذا المكان، وكانوا محقين في ذلك.

في تلك الأثناء كان "برايزينج" قد أخذ راحته على الأريكة، بينما كنت أرغب في مواصلة السير إلا أنه كان محقًّا. أين سنذهب؟ هل سنواصل السير بمحاذاة السور أصفر اللون حتى نهايته، حيث يراقبنا حارس البوابة بريبة من وراء نظاراته؛ وبعد ذلك نعود حتى النهاية الأخرى؟ أم نعبر طريق الحصى، مرورًا بشجيرات الورود التي تبرز منها أزهار الكركديه البراقة، وكذلك نمرّ بالنوافير الرشاشة؛ فقط كي نصل مرة أخرى إلى الجدار الأصفر؟

استرسل "برايزينج" في سرد قصته بشكل أفضل وهو جالس، لأنه لم يعد في حاجة إلى التوقف من حين لآخر بلا سبب ليتطلع بتلك النظرات الحزينة إلى ما هو أبعد من السور العالي. لذا تركته جالسًا ونكشت بأرجل مقعدي في الحصى حتى كف المقعد عن الاهتزاز. وضع "برايزينج" قدمه المكسوة بجورب أصفر ليموني على ركبته وهو يدعكها بشدة، حيث

ظهرت قصبة ساقه العريضة والبيضاء بشكل مغري، لم أتمكن من رفع عيني عنها سوى بصعوبة.

تابع حديثه وهو يدلك كعب قدمه:

- ضحكنا كثيرًا، أنا و"بيبا"، لأنني شعرت بأنني يجب أن أرد لها الصاع صاعين بعد سماع تصويرها الساخر والجريء لحفل زفافها، فحكيت لها قصتي مع خيمة "اليورت" في "بياريتز" الفرنسية.

- أنت تعرف هذه القصة، أليس كذلك؟

قالها وهو يتفحصني، فأكدت له أنني أعرف خيمة "اليورت" في مدينة "بياريتز" وأوركسترا الحجرة. سوف أتذكرها دائمًا.

استمتعت "بيبا" كثيرًا على أية حال، وسمحت لنفسي بإطلاق تعليق مفاده أنه من الصحي للغاية في عمرنا هذا أن نتذكر خطايا الشباب، وننظر إليها عن بعد بتسامح. فقالت بمسحة من الدلال القديم:

- إيه "عمرنا" ده!!

وأضافت:

- إن الأمر لا ينبغي أن يعنيك لأنك محتفظ بشبابك.

قبلت المجاملة شاكرًا، ورددتها إليها بسهولة. الأمر الذي يبدو أنه أسعدها.

عادت بنا "بيبا" مرة أخرى إلى موضوع الأدب، إذ كانت تمتلك لمحات عميقة ساحرة عن الأدب العربي. أخذت أستمع إليها وقد أصبحت أسير كلماتها؛ وهي تحكي عن التقليد الشفهي، وعن "محمد شكري" وعن آخرين أيًّا كانت أسماؤهم، وعن "باول بولز" في طنجة الذي سَجَّلَ بصوته قصص بعض هؤلاء الكُتَّاب على شريط ودَوَّنها بينما كان ينهل من مربى الحشيش من وعاء طهي. وإذا بنا نحتسي البيرة من الكأس نفسها كما لو كنا معارف قُدامى، لأنني نسيت إحضار كأس خاص بي.

جاء من قاطع الجلسة الحميمة بين "برايزينج" والإنجليزية المثيرة للاهتمام، حين حضر "سانفورد" - زوج "بيبا" - وهو يصعد درجات السلم المؤدي إلى شرفة الباي بخطوات مهتزة. الظهور المفاجئ للزوج مفتول العضلات في قميصه الأبيض والشورت كاكي اللون جعل "برايزينج" ينتفض من مكانه، الأمر الذي بدا له في تلك اللحظة وكأنه في وضع مشين، إلا أن ردة الفعل تلك كانت ترجع إلى كون "برايزينج" لم يتعرف من قبل أبدًا على عالم اجتماع - أو عالم أعراق؛ إذ لم يعد متأكدًا - خلاصة القول إنه لم يتعرف على شخص كهذا، كان يخشى لسانه الحادّ أكثر مما يخشى الشباب المنتفخين الذين كانوا يمارسون رياضة اسمها

مصارعة الشوارع الحاسمة Ultimate Street Fight في قبوٍ كائن في مواجهة مبنى شركة "بريكسينج" الإداري.

لم يكن لقلقه داعٍ على الإطلاق؛ إذ أعرب "سانفورد" عن امتنانه أن زوجته وجدت فيه شريكًا للحوار، ما بدد شعوره بالذنب لأنه تركها وحدها طول اليوم كي يزور حطام إحدى قلاع الصحراء القديمة. ثم تبادل كلاهما بعض الكلمات المهذبة، وحكى الإنجليزي بكل شغف عن رحلته، ودعا "برايزينج" على الفور كي يرافقه في اليوم التالي في رحلة أخرى، ثم وجه حديثه إلى زوجته بالإنجليزية: I still hope of course that you will join us my dear(ما زلت أتمنى طبعًا أن تنضمي إلينا ياعزيزتي).

وقال إن الوقت حان للاستعداد من أجل طعام العشاء، وسأل "برايزينج" إذا ما كان يرغب في الانضمام إليهم على العشاء؛ إذ أنه متأكد أنه سيكون له مكان على المأدبة الطويلة، وقال كذلك - وهو يمنح زوجته نظرة جانبية - إن كلاهما سيكون ممتنًا لوجود شخص أقل غربة بالنسبة لهما كي يشاركانه الحوار.

واصل "سانفورد" حديثه قائلاً إنه استمع بدهشة ـ أمس ـ للقصة المطولة التي حكتها جارته على الترابيزة، وهي شابَّة تبلغ الثلاثين بالكاد وتعمل في البورصة، حيث صوَّرت له فيما يشبه الملحمة الطويلة أسعد أيام حياتها، الذي تمثلت أحداثه في ذلك اليوم الذي قضته في مدينة

"تسوفنهاوزن"، وهي مدينة تقع - على حد علمه - جنوبي ألمانيا، حيث كانت تتسلم سيارة رياضية من المصنع، بعد أن حصلت على علاوة ضخمة نظير أدائها السنوي الذي فاق المتوسط، على حد تعبيرها، هكذا استطاعت أن تتحمل تكلفة السيارة، ثم قادت السيارة على الطريق السريع الألماني الذي لا يخضع لحدود سرعة معينة متجهة إلى إنجلترا. الأمر الذي اعتبرته بمثابة المغامرة الحقيقية؛ ومن ثم اهتمت بذكره، لأن القيادة بسرعة عالية يمكن أن تسبب اضطرابًا شديدًا خاصةً إذا كان مقود السيارة ناحية اليمين وهي تسير في مرور غير معتادة عليه يعطي اليمين أحقية السرعة. وأكدت السيدة أنها نجت من الموت أكثر من مرة بسبب ردّ فعلها السريع الذي يرجع الفضل فيه إلى ساعات التوتر الكثيرة التي تقضيها في البورصة. قال "سانفورد" إنه ولحسن حظه يستطيع التظاهر بأنه يستمع باهتمام إلى تلك الحكايات ويدرجها تحت دراسته للبيئة الاجتماعية. فهو يعتبر كل شكل من أشكال الأحكام المسبقة قابلاً للشك من المنظور العلمي، إلا أن تلك الطاقة التي يستنفدها هؤلاء الشباب لتحقيق كل الصور النمطية والكليشيهات تثير الإعجاب على وجه الخصوص.

اضطر "برايزينج" للاعتذار عن تلبية الدعوة بكل أسف، لأنه كان مرتبطًا بموعد على العشاء مع "سعيدة". إلا أنه تبع الاثنين عبر أشجار النخيل إلى الخيام. تقدمهما "سانفورد" في الخطى وتسبب بحذائه الصيفي المفتوح في إثارة الغبار، الذي عاد ليستقر على شعر سمّانة ساقه الأشقر.

قال "برايزينج":

- في خيمتي التي لا تبدو من الداخل مثل خيمة على الإطلاق وهي مفروشة بالكليم القيم، تمكنت أخيرًا من فضّ أمتعتي، ورحت ألعن مديرة منزلي، ذات الروح الطيبة.

أخذ يداعب جوربه الأصفر بإبهامه، وقد صمت لحظة كي يستجمع أفكاره بشأن مديرة منزله، ثم تابع كلامه قائلاً:

- "لم تحزم لي سوى ملابس فاتحة الألوان، أغلبها باللون الأصفر الرملي تفي بالغرض وفقًا لرأيها. كان محتوى حقيبتي يكفي لتزويد حملة "روميل" إلى أفريقيا. في أسفل الحقيبة وجدتُ بدلتي المصنوعة من قماش التويد وقد تكسرت بعض الشيء، تلك البدلة التي كانت صديقتي العزيزة اشترتها لي من أجل حفل حديقة على جزر "الهامبتون". قطعة ملابس لا تتناسب على الإطلاق مع عشاء في واحة تونسية، ولكنني على الأقل لن أبدو كما لو كنت خارجًا لتوِّي من فيلم "المريض الإنجليزي". علاوة على أني لم يبق لي أي اختيار آخر؛ فقد اشتريت من السوق زجاجتَيْ ماء الورد هدية لمديرة منزلي وسكرتيرتي، انفتحت إحداهما أثناء السفر إلى "تشوب"، وانسكبت داخل الحقيبة، فخلفت بُقعًا وردية اللون واضحة على كل السترات الأخرى.

حلق "برايزينج" ذقنه وارتدى بدلته القطنية، واختار لها قميصًا أبيض ذا ياقة مقوّاة لم يترك عليه ماء الورد أثرًا سوى من الظهر. ثم وقف أمام المرآة ذات الإطار الشرقي، وفتح زر القميص الثاني من أعلى وأغلقه خمس مرات، وهو يتفحص نفسه مرارًا وتكرارًا، حتى صارع نفسه بعين مغلقة، وحَرَّك يده اليسرى حركة معقدة اتخذها ذريعة للمصادفة التي تجعله يقرر إما أن يترك الزر في النهاية مفتوحًا أو يغلقه.

غادر "برايزينج" الخيمة وقطع مزارع النخيل التي لفَّها الظلام، ولم يضئها سوى بعض المصابيح القليلة. امتزجت رائحة ماء الكولونيا القوية الذي استخدمه بعد الحلاقة بماء الورد الحلو. برز شعر صدره الأبيض من الياقة المفتوحة. تنامت إلى سمعه عن بعد أصوات ضحكات عالية صادرة عن الشباب، بدأ يتعرق.

- أجلسوني على ترابيزة صغيرة بالقرب من البار، كي أنتظر "سعيدة". لوَّحت لي "بيبا" من المائدة الطويلة التي امتدت عبر المطعم بأكمله. بينما جلس "سانفورد" إلى جانبها وهو يمسك بكأس بيرة في يده وينصت إلى سيدة شابَّة تجلس في مواجهته، لكنها مالت بجسدها فوق الطاولة تجاهه. وأخذت تُلَوِّن حكاياتها بملامح وإشارات يد حادّة للغاية تتقاطع في الهواء. وقد لفت انتباهي حتى من تلك المسافة كيف أنها كانت تجذب الأنظار بعمق إلى فستانها الأسود القصير. ربما تكون هي قائدة السيارة البورش.

دخلت "سعيدة" صالة الطعام، وسألت أثناء مرورها على هذه الترابيزة أو تلك ما إذا كان كل شيء على ما يرام، وحيَّت العروسين بنفسها، واعتذرت لي بعبارات تتناسب مع الشكليات عن تأخرها. أما الطعام فماذا يسعني أن أقول، فقد كان ينمّ عن سخاء شديد، لكنه ذكرني بالساعة المؤلمة التي تركني فيها "منصف داغفوس" في رفقة بناته كي يكافح النيران التي اشتعلت في مصنع الفوسفات الذي يمتلكه مستخدمًا جاروفًا ودلوًا به رمال. لم يكن ذلك خطأ "سعيدة"، فهي بذلت قصارى جهدها، إلا أن المشكلة كانت تكمن في مفرش البروكار الدمشقي المقوَّى الممتدّ بيننا والمتمثل في كون هذا العشاء الجماعي مجرد تكليف أعطاها إياه أبوها، لذا اجتهدت في طرح موضوعات خفيفة. تحدثنا لفترة عن باريس حيث درست هي:

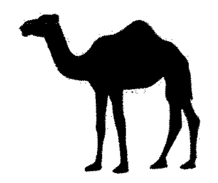
- أنت تعرف أنني درست الغناء لفترة في باريس أثناء شبابي.

لذا حكيت لها عن أوقاتي الجامحة في باريس، لكن "سعيدة" كانت شابَّة جادَّة لا تهتم بالأوقات الجامحة. قالت إنها تحب بحيرة "جنيف"، حيث درست على ضفتها في مدرسة فندقة سويسرية، عندئذ تحدثت أنا عن "نابوكوف"، الذي لم تكن تعرفه، وحكيت كذلك عن فراشات "نابوكوف"، إلا أنها بدا عليها عدم الاهتمام بشأن الفراشات أيضًا. لذا

قررت الخروج من هذا الموقف قدر المستطاع واستأذنت لأني أشعر بالإجهاد لكثرة الأحداث خلال هذا اليوم.



3



"استيقظت في صباح اليوم التالي في موعد مناسب، كالمعتاد، أنت تعرف عاداتي. وإذا كنت أخشى بوفيه الإفطار، أستيقظ مبكرًا بعض الشيء. كانت برودة ليل الصحراء لا تزال عالقة في هواء الصباح. وجدت "سانفورد" يجلس وحده تمامًا على ترابيزة، مزودًا بالشاي والبيض المقلي. وتنبأ - وهو يلمح جريدة إنجليزية من اليوم السابق بطرف عينه - أن الأمور لن تنتهي على خير. وقال إن هؤلاء الأطفال سوف يجرّوننا إلى الهاوية، ولن تتمكن "جيني" من إيجاد ثمن وقود سيارتها البورش. كان "سانفورد" يُقَطِّر صفار البيض على صورة الصخب الدائر في منتجع "إلفراكومب" الساحر؛ ويهز رأسه قلقًا. ثم قال إنه عقد العزم على زيارة آخر بقايا الأبنية متعددة الحجرات لقبائل البربر، وسألني إذا ما كنت أرغب في مرافقته".

تردد "برايزينج" وتملَّص من الموافقة الفورية بطرح أسئلة تُبدي الاهتمام بطبيعة هذه الأماكن المليئة بالأسرار. فراح "سانفورد" يحكي بشغف أنها قمرات سكن محفورة داخل الأرض ولا يمكن الوصول إليها سوى عبر نفق طويل. عمرها قرون طويلة، ولم تخضع للبحث تقريبًا. وأعلن أنها على شفا الانهيار كلها، لذا ربما تكون تلك هي آخر فرصة لرؤيتها قبل أن تبتلعها الأرض خلال سنوات قليلة.

خفَت حماس "برايزينج". فالأمر بدا وكأنه أشبه بمغامرة غير محسوبة العواقب، وهو على حد قوله كان يتمتع بنظرة ثاقبة لمثل هذه الأمور. وقد استشفَّ أن وراء مظهر "سانفورد" الخارجي للشخص الأكاديمي المتحضر يختفي نوع من الجرأة المتهورة وميل إلى اتخاذ قرارات عفوية غير متروية، الأمر الذي أقلقه، إلا أن "سانفورد" حاول أن يقنعه وقال له:

- تعال، ستكون مغامرة.

فكر "برايزينج" في نفسه قائلاً: نعم، لهذا السبب تحديدًا، أي لأنها مغامرة. ولكن على جانب آخر ماذا يعرف هو عما يتخيله أستاذ علم اجتماع إنجليزي عن المغامرة؟! ربما يكون نمط المغامرة الذي قد يناسب "برايزينج" تحديدًا؛ أي مغامرة تقترب من كونها مغامرة مثقفين. الإقدام

الجريء لخوض أرض جديدة قابلة للتأويل بعد. ولكن ما سبب كل هذه الجيوب في بنطلون؟! لا أحد يحتاج شيئًا مثل هذا، إذا لم يكن ينوي سوى إطلاق فكره وروحه من سيارة الدفع الرباعي صوب الغرابة.

قاطعت "سعيدة"- صاحبة المزاج الجيد - تأملاته، حين جلبت من البوفيه فنجان قهوة، وسألت "سانفورد" عن أحواله في هذا اليوم المهم. فمساء اليوم سيحتفل "مارك وكيلي" بزفافهما. إلا أن "سانفورد" أبدى نوعًا من عدم الاهتمام، ثم أخبر "سعيدة" أنه سيذهب برفقة "برايزينج" بحثًا عن آخر الأبنية متعددة القمرات. فبدت ملامح القلق على وجه "سعيدة". وعرضت أن يصاحبهما (رشيد). الأمر الذي رفضه "سانفورد"، بينما أصرت "سعيدة" وانطوى رد فعلها على عناد شديد. فَبَرَّر "سانفورد" رأيه بأنه كان يتحرك وحده طوال الأيام الثلاثة الماضية بالمنطقة، وأنه يحمل خرائط جيدة، فضلاً عن كون السيارة مزودة بجهاز GPS لتتبع وتحديد الموقع، وهو يرى أنه لا يحتاج إليه. أصرت "سعيدة" على رأيها، وشعر "سانفورد" بأنه تحت الوصاية. عندئذ تدخل "برايزينج" ليخفف حدة الموقف وقال إن وجود شخص صاحب خبرة واسعة إلى جانبه يعتبر ميزة كبيرة. فرد "سانفورد" بالإيجاب، وأضاف أن "رشيد" هو مشرف حمَّام السباحة بالمنتجع، شابٌ لطيف، لكنه نشأ في

ضواحي صفاقس ولديه قصور ثقافي شديد. ظلت "سعيدة" على إصرارها بأن رشيد سيرافقهما وإلا لن تسمح لهما باستعارة السيارة "البيك أب" الخاصة بالفندق. أبدى "سانفورد" اعتراضًا وأكد أنه قادر على أن ينتبه لنفسه، فقاطعته "سعيدة" وقالت:

"I do not care what you do Professor but Mister Preising is in my responsibility. Take Rachid with you or join your family at the pool".

(لا يهمني ما تفعل يا بروفيسور، ولكن السيد "برايزينج" مسئول مني. خذ "رشيد" معك أو انضم إلى أسرتك على حمّام السباحة).

انعقد لسان "سانفورد" للحظة كانت كافية كي تتمنى له "سعيدة" وقتًا طيبًا، وتنصرف.

ألقى جريدته على المنضدة وجنح بسبب غضبه الشديد لفرض نظرية شديدة الشوفينية، مفادها أنه ربما يجب إعادة النظر في الدور التقليدي للمرأة في المجتمع الإسلامي من المنظور الغربي. بينما انبهر "برايزينج" بثقتها بنفسها وصرامتها. وقد أعجبه - بطريقة ما - شعورها أنها مسئولة عنه، فمن المفترض أن يذهب مع الإنجليزي ومراقب المسبح الصفاقسي في مغامرة استكشافية. وهو على يقين، أنه سيشغل جزءًا صغيرًا من تفكير "سعيدة" طول اليوم؛ أثناء انشغالها بتحضيرات حفل الزفاف، وقد ملأه

الترقب وهو يتصور حرصها على عدم إظهار ارتياحها الكامن - الذي تخفيه خلف صرامتها - عندما تراه عائدًا وقت الفجر مكسوًّا بالتراب.

عندما وصل "برايزينج" إلى السيارة ماركة "تويوتا بيك أب"، مرتديًا بنطلونًا رملي اللون له جيوب كثيرة، وقد اختار ذلك البنطلون على وجه التحديد، رغم وجود بقعة واضحة من ماء الورد تُزيِّن الركبتين، كما كان يرتدي قبعة صغيرة لها إطار رفيع، مثل التي يرتديها صيادو البحيرات، كان "رشيد" - وهو شخص نحيف، عريض الكتفين - يضع حقيبة التبريد في مؤخرة السيارة. وقد بدا متطلعًا بسرور إلى تلك الرحلة، وفي أحسن حال. أخذ "سانفورد" المفاتيح متذمِّرًا؛ وأشار إلى حقيبة التبريد متسائلاً، فأخبره رشيد أنها "المؤن"، ثم فتح الغطاء البلاستيكي كما لو أنه يعرض مجموعة من الكلاب الصغيرة. كان الصندوق ممتلئًا بالسندويتشات، وبأطباق من الفلين بها سلطات وحلوى، وزجاجات مياه. ما كان يكفي لحملة استكشافية كبرى. نفخ "سانفورد" بازدراء، وجلس خلف عجلة القيادة وقد حمل معه ساندويتش من بوفيه الإفطار وزجاجتي مياه في حقيبة الظهر. بينما انحشر "برايزينج" و"رشيد" في المقعد الأمامي المتلاصق.

عندما همَّ"سانفورد" أن ينطلق بالسيارة، ومتابعة حديثه، طلب "رشيد" أن ننتظر لحظة، فقد نسي إحضار نظارته الشمسية. ترك

"سانفورد" المحرك دائرًا، ونظر عابسًا من النافذة عندما ذهب "رشيد" لإحضار نظارته. فجأة لمعت عيناه بخبث، وقال لي:

- اغلق الباب.

ما إن استجبت لطلبه حتى فوجئت به يزيد من السرعة وينطلق من مدخل الخدم مباشرة إلى الطريق الصحراوي. اعترضت قائلًا:

- ورشيد!

نظرت من خلف كتفي عبر النافذة الضيقة إلى رشيد المذهول، الذي سرعان ما غاب عن الأنظار خلف غيمة غبار متصاعدة. تصرف "سانفورد" مثل المراهق؛ إذ صرخ وصاح، كما ضرب بقبضة يده على غطاء العربة متهللًا. يجب أن أعترف أنني أصابتني منه عدوى الفرح والقهقهة، وأخذنا نحتفل بفعلتنا الصغيرة الشيطانية. إلا أنني نظرت مرة أخرى بدافع الشعور بالذنب إلى الوراء، وصدمت عندما ظهر رشيد خلفنا وهو يجري متقدمًا بصدره العريض، حتى أنامل ذراعه الممدودة بدت وكأنها سكين يشق الغبار، ووضحت سرعته في المسافة الكبيرة التي اجتازها. صرخت قائلاً:

- زد السرعة، زد السرعة، لقد اقترب.

تفوَّه "سانفورد" بلعنة، ذكَّرتني بأحد معارفي، عالم الأثنولوچيا سليط اللسان. نظر في المرآة وزاد من السرعة، حتى أصدر المحرك أزيزًا. بدا الأمر الآن كأنه قد أخذه على محمل شخصي. وكذلك الحال بالنسبة إلى رشيد، الذي تسارعت أنفاسه ولا تزال سرعته على أشدِّها مخترقًا غيمة الغبار. يبدو كأننا تخلصنا منه أخيرًا، فقد اختفى وسط غيمة الغبار. ظل "سانفورد" يضحك بشكل هيستيري لوهلة، ثم توقف فجأة، وراح يكرر ثلاث مرات أنه يستطيع أن يعتني بنفسه ولا يحتاج إلى مرشد. لم أرتح كثيرًا للأمر، ربما كان من الأفضل مرافقة مرشد لنا، ولم تكن تلك طريقة محترمة للتخلص من رشيد. كما يجب أن أعترف أنني خفت بعض الشيء من رد فعل "سعيدة". فهي لن تسعد على الإطلاق بسلوكنا الوقح. إلا أن الوضع في السيارة كان مريحًا، فأنت تعرف كم أكره ضيق المكان في جلستي.

ظل رشيد يجري وراء السيارة، مختفيًا في سحابة الغبار العملاقة التي سَبَّبَها "سانفورد" بأسلوب قيادته العصبي، مسافة ثلاثة كيلومترات دون أن يلحظه كلاهما.

كان "سانفورد" محقًّا بشأن رشيد، فهو صحيح مشرف المسبح، لكنه مشرف مسبح وراءه قصة. قصة بدأت بحادث سيارة على الطريق السريع عند ضواحي مدينة "تولوز" الفرنسية، نجا منها رشيد وحده من بين أعضاء

أسرته وهو في الثامنة من عمره، وكان من آثارها أن أعادوه إلى تونس مرة أخرى، حيث اعتنى به جدّه وجدّته اللذان كانا يعيشان في صفاقس.

كان جده، ذلك الرجل قصير القامة ببشرته المجعدة كما لو اكتست بورق الكوريشه المحترق، هو آخر مرشدي ميناء صفاقس السبّاحين والمشهورين، إلا أنه وقت وصول رشيد الصغير إلى بيته كان قد خرج من الخدمة منذ فترة طويلة، بعد أن حل محله شباب حاصلون على دبلوم في الإرشاد يقودون سفن الإرشاد القوية، ويتوجهون بها صوب سفن النقل بدلاً من أن يسبحوا إليها، مثلما كان جد رشيد يفعل طول حياته في ظل كل الأجواء حتى وإن ارتفعت الأمواج بطول الإنسان وتلاطمت حوله. كان يتخذ وجهة الشمندورة ذات الأجراس التي تطفو على بعد أميال في البحر المتوسط ليتمسك بها كي ينتظر أحيانًا لساعات طويلة قدوم سفن النقل. وما إن تظهر تلك الكتلة المعدنية الضخمة في الظلام أخيرًا، حتى يطلب منهم أن يشدّوه إلى متنها ليتلمّس السلم المغزول من النسيج المقوى ويتسلقه عاليًا فيقف مبتلاً والماء يقطر منه أمام الربان كي يرشده بأمان وثقة عبر خبايا ميناء صفاقس الخادعة.

هذا الرجل، أي جد رشيد، أصابه سوء الطالع، فتزوج امرأة شريرة؛ لذا لم يُشَكِّل الأمر فارقًا بالنسبة له حين يظل ساعات طويلة طافيًا مثل الفلين في الماء وهو يدفع بالشمندورة الصفراء التي يتشبث بمقبضها الصدئ ويبدل

بين يدٍ وأخرى بينما يرفس الماء قدر المستطاع. كان يحب السباحة في البحر المفتوح، بعيدًا عن البيت الصغير عند الصخرة العالية. وهناك عند الشمندورة، كانت لديه وفرة من الوقت، كي يفكر مليًّا في سبب كون زوجته شريرة. أحيانًا كان يفكر أنها على ما يبدو حزينة فقط، وعندما تتأخر سفينة الشحن أو تعلو الأمواج بدرجة كبيرة وتدق الأجراس عاليًا كان يفكر أنه هو الذي تسبب في حزنها.من حين لآخر كان ينوي أن يسألها حين يعود إلى البيت ثانيةً عن سبب حزنها. لكنه في كل مرة يعقد العزم فيها كان يتعين عليه أن يستجمع قواه كي لا يُعاود السباحة على الفور ليسألها، إلا أنه لم يسبح عائدًا أبدًا ولم يسأل أبدًا؛ إذ كان يخشى إجابتها.

عندما مات ابنه الوحيد على الطريق السريع في فرنسا، وترك له حفيده، اضطر إلى الانقطاع عن السباحةِ إلى عرض البحر مدةً طويلة، إلا أن الحال مع زوجته لم يتحسن، فضلًا عن أنه لم يجد عملًا آخر؛ لذا كان يقضي أيامه عند سور الميناء مع جمع من الرجال المسنين المتعطلين عن العمل بدورهم. وعندما كان يشعر بأن البيت الأبيض الصغير يزداد دنوًّا منه- حتى يكاد يلامس ظهره – كان يقفز في الماء ويسبح بعيدًا إلى عرض البحر حتى يصل إلى الشمندورة الصفراء. أما رشيد فلم تكن الحياة مع جدته ممتعة له هو أيضًا، لذا سرعان ما بدأ يقضى أيامه مع الرجال العجائز على سور الميناء، ويحاول أن يُمَيِّز رأس جده الصغيرة التى يعلوها الشيب من بين قمم الأمواج.

تعلم رشيد السباحة بسرعة، إذ علَّمها له جده. وما لبث أن بدأ يصاحبه دائمًا عند السباحة إلى عرض البحر ليعود بعد ذلك وحده عائمًا. وعندما ماتت زوجة البحَّار العجوز، لم يتوقف الجد عن السباحة إلى عرض البحر المفتوح، لأنه كان يشعر بحاجةٍ مُلِحَّةٍ في أن يفكر في السبب الذي جعل زوجته حزينة هكذا، وأن يسبّ نفسه لكونه عجوزًا أحمق ضعيفًا، لأنه لم تواتِهِ الشجاعة أبدًا كي يسأل. وعندما بلغ رشيد عشرة أعوام، سَبَحَا معًا لأول مرة إلى الشمندورة الصفراء، ليطفو كلاهما لفترة في الماء الدافئ وهو يتعلق بالمقبض الصدئ. وسرعان ما كانت قوى رشيد تخذله في طريق العودة، فيتعلق بعنق جده المجعد الذي كان يعود معه المسافة كاملة سباحةً. وذات يوم وصلا إلى البلدة بعد حلول الظلام بفترة طويلة، الأمر الذي لا ينبغي أن يحدث لرشيد مرة أخرى. وبعد مرور يومين ذهبا سباحةً مرة أخرى، فعاد رشيد المسافة كلها وحده، ومنذ ذلك اليوم أخذا يسبحان إلى الشمندورة الصفراء كل يوم مرة وأحيانًا مرتين، وما لبث رشيد أن أصبح يسبح أسرع من جده.

ذات يوم لفت رشيد انتباه رجل من نادٍ رياضي تونسي، فخصص له مدربًا، لذا صار يقضي تحت توجيهاته ساعات طويلة دون تعب في المسبح الكبير للنادي الرياضي، ومع ذلك كان يذهب سباحةً كل يوم تقريبًا مع جده إلى الشمندورة الصفراء. وفي سن السادسة عشرة التحق رشيد بالفريق القومي التونسي، واشترك ضمن فريق السباحة مرتين في الأولمبياد

وفي بطولتين دوليتين كبيرتين، لكنه لم يحتل مراكز متقدمة في البطولات النهائية للسباحة إذ ظل البحر هو مضمار تفوقه، أي المسافات الطويلة، خمسة وعشرون كيلو متراً وأكثر، مما أكسبه شهرته المحلية، ليصبح بطلاً تونسيًّا ثم أفريقيًّا ثم يصل بعد ذلك إلى إحدى البطولات العالمية، وكان جده يرافقه – تقريبًا - في كل البطولات. وقد سافرا معًا إلى حمَّامات السباحة العالمية في مدن: "شفيبش هال"، "فوكوكا"، "روما"، "سانتا فيه"، و"هلسنكي"،حتى مات البحَّار العجوز- الذي جف جلده - على حافة حمَّام السباحة المحلي في مدينة سمراء، على بعد ثلاثة آلاف كيلومتر عن عرض البحر.

عاد رشيد إلى مدينة صفاقس، وباع البيت الأبيض الصغير، ولم يعد لديه رغبة في أن يرى البحر ثانيةً. وعمل أجيرًا لجني التمر في واحة "تشوب". وعندما تولى "سليم مالوخ" مهامّ الواحة؛ بقي رشيد وعُيِّن عاملاً في حديقة منتجع"ألف ليلة وليلة". ولأنه الوحيد من بين العاملين الذي يستطيع السباحة، سرعان ما ارتدى لباس البحر أبيض اللون، وأُوكِلت إليه مهامّ الإشراف على حمَّام السباحة. ولم يفعل رشيد ذلك إلا رغم إرادته، غير أنه اعتاد على الصحراء، ولم يعد راغبًا في تركها ثم أدرك أن حمَّام السباحة بمنتجع "ألف ليلة وليلة" ليس البحر. بعد مرور ثلاثة أعوام لم يهدد خلالها الغرق أيًّا من النزلاء، ولم يعايش أي حالة طوارئ تجبره على الخوض في الماء، اكتفى رشيد باصطياد السحالي الغارقة

بشبكة كبيرة كل صباح، وقَبِلَ دوره الجديد بوصفه مراقبًا للمسبح. وبرغم ذلك فقد فرح عندما كلفته "سعيدة" بمهمة مرافقة هذين السائحين في الصحراء.

لم يكن جَريُه وراءَ السيارةِ التويوتا - للوهلةِ الأولَى - سوى ردة فعل، إلا أنه عندما شاهد الإنجليزي يَمُدّ قبضته إلى السماء - مُعلنًا الفوزَ - اعتبر الأمر بمثابة التحدي. وظل يجري لمسافة ثلاثة كيلومترات خلف سحابة الغبار المنبعثة من السيارة، وفي بعض الأحيان كان يقترب منهما، غير أنهما يسرعان بقدرٍ ما، لكنهما لم يستطيعا أن يسبقاه شوطًا بعيدًا، وخالجه شعور أنه يستطيع الجريَ إلى الأبد، وامتلأت رئتاه القويتان بهواء الصحراء الساخن، صار مفعمًا بالطاقة ومثابرًا. وأخذ يفكر في جده - المرشد العجوز - وكيف كانا يتمسكان بالمقبض الصدئ ويشاهدان السفن الكبيرة التى كانت تمر بعيدًا عنهما، وكيف كانت الأجراس تصمّ آذانهما، حين تدق على إيقاع صوت الأمواج العالي، لدرجة أنهما كانا يتبادلان الصمت. كان بإمكانه أن يجري إلى ما لا نهاية، ولعلهما لا يمكنهما أن يسبقاه لمسافة بعيدة. ولكن أصبح لزامًا عليه بعد كل ذلك أن يفكر في جدته الحزينة، وهنا استحوذت عليه حالة من الحزن الشديد، فبقي واقفًا بلا حراك. وظل يصرخ ويسبّ السائِحَين بأقذع الشتائم، ثم هرول عائدًا إلى الفندق.

تابع "برايزينج" سرد قصته قائلاً:

برغم أننا وصلنا مجددًا إلى شارع لا يَمَسُّنَا فيه أذًى، إلا أن الرحلة لم تكن خالية قَطُّ من المتاعب. وبذل "سانفورد" أقصى جهدهِ كي يكون رفيق سفر مقبولًا وعذب الحديث، وأمدّني بكل المعلومات عن تاريخ البربر. ولم أكن ذا حظ سيئ عندما اقترح رفيق سفري – بعد رحلة استغرقت ساعتين في منحدر جبلي وبعدما لاحت لنا قرية صغيرة في الأفق – أن نشرب كوبًا من الشاي. وفي الحقيقة كان هناك وسط الهضاب المتربة شيء ما يبدو وكأنه ميدان القرية وبه مقهى صغير، حيث جلسا على ترابيزة صغيرة مصنوعة من الصفيح ومقاعدها بلا مساند في ظل مبنى الشرطة.

كان "سانفورد" يُلقي محاضرة عن محاسن المباني القُروية البربرية وعن دور المرأة، وكان "برايزينج"– الذي قرأ شيئًا عن الشعوب الأجنبية – يستعدّ ليُدلي بدلوه في هذا الشأن، وقد حاول إسكات"سانفورد" بالشاي الأخضر الحلو. وصار لا مناص من أن يتطرق "برايزينج" إلى المقارنة بين تقاليد ولاية العرش لدى قبائل الجبل الجُوَاتيمالية وطقوس الانضمام والقبول الدموية لدى قبائل غرب إفريقيا، هل كانوا هم السكان الأصليين لجمهورية "سورينام"؟ وَجَانَبَهُ الصوابُ حين عقد مقارنة بين هذه التقاليد وتلك الطقوس وبين البربر دون بيِّنة واضحة. عندئذ انفتحت نافذة من واجهة مبنى الشرطة، تقع مباشرة فوق بقايا علم الجمهورية المتهالكة،

أطل منها موظف أصلع بشارب غليظ، يتَّشِح بشارات فرنسية ذهبية، وهو يتحدث في التليفون. ونظر "برايزينج" إلى أعلى والتقت عيناهما. ولوَّح "برايزينج" بيده بِلُطف، وكان مقتنعًا غاية الاقتناع أن تحسين علاقته بالسلطات المحلية سيعود عليه بالنفع. وحيَّاهُ الموظف تحية عسكرية بأن رفع إصبعين من أصابعه بمحاذاة رأسه الأصلع ثم أنهى المكالمة، واستلّ بأصابعه علبة سجائر من نوع "بُوسِتة" من جيب سُترته الأمامي، وأشعل سيجارة على مَهَل، وهو يسند بطنه على حافة النافذة.

اجتهد "سانفورد" كي يلفت نظر "برايزينج" إليه مُجددًا وأن يُضَيِّفَهُ بِقصص عن أكْلات الزفاف البربرية التقليدية المكونة من الجمل المشوي والكُسكُسي، وأصبح يتحدث إلى صاحبه بأسلوب المدرسين، وأخذ يشرح له قصة الجمل المشوي قائلاً:

- في مثل تلك الأحوال يُشوى الجملُ كلّه – على سبيل الزينة - على هيئة دمية "الماتروشكا" الروسية، ويُحشى الجملُ بخروف كامل، ويُحشى الخروفُ بشاة كاملة، وتُحشى الشاة بطائر "حُبَارَى" كامل، ويُحشى الحُبَارَى بعشرات من السمَّان المحشو بالبلح والبَرْبَارِيس. غير أن "برايزينج" ظن بالقصة الظنون، وانتابه الشعور بأنه ربما يكون قد

سمع تلك القصة أو إحدى رواياتها في غير هذا المكان، بل وربما في سياقات أخرى أكثر مرحًا.

وقبل أن ينتهي الرجلان من شرب الشاي، أو بالأحرى قبل أن يُنهي الرجل ذو الشارب سيجارته، توقفت أمام نقطة الشرطة سيارة دفع رباعي سوداء اللون وترجَّل من ناحية الراكب المرافق للسائق شخص يرتدي بدلة داكنة واختفى داخل النقطة.

حينئذٍ نظر "برايزينج" عاليًا صوب النافذة، إلا أن الرجل ذا الشارب كان قد اختفى. وفي المقابل ظهر الرجل ذو البدلة الداكنة مرةً أخرى، وانضم إلى زميله في السيارة، وشَخَصَ ببصره إلى الأمام من وراء نظارته، وما لبث محرك السيارة أن دار مُجددًا.

دفع "سانفورد" الحساب وغادر كلاهما القرية مرورًا بطريق ضيق من الحصى يؤدي إلى الجبال.

تابع "برايزينج" حديثه قائلًا:

- سرعان ما بدا الأمر كما لو أن هناك سيارة تتبعنا. يجب أن أُقرَّ بأن كل الأفكار التي خطرت ببالي عن ذلك جعلت حبّات العرق تكسو جبهتي. فقد سمعت ما يكفي عن سياح مختطفين.

اتسعت عيناه أثناء سرد القصة وجحظت بسبب الرعب، وقبض على يدي بينما يصور بإيجاز خوفه الذي تملك منه دون شك.

- نظرت إلى "سانفورد" ورأيته وهو يداوم النظر في المرآة الخلفية، من الواضح أنه لاحظ تلك السيارة.

قال "برايزينج":

- هناك من يتبعنا.

فأجاب "سانفورد":

- نعم، لدي هذا الانطباع أيضًا.

تلعثم "برايزينج" وهو يقول:

- أرأيت!! أرأيت!! إذا كنا استمعنا إلى "سعيدة" فقط، لكان رشيد معنا الآن. يا إلهي ما كان علينا أن نفرّ بالسيارة دونه. ليت رشيد كان معنا.

سأله "سانفورد":

- وبِمَ كنت تُمَنِّي نفسك منْ وجود مشرف المسبح؟

أجاب "برايزينج" بأنه لا يعرف، إلا أن وجود شخص من السكان المحليين كان بالتأكيد سيُشَكِّل ميزة لهما، في حالة اختطافهما. حينئذٍ استفسر "سانفورد" قائلًا:

- اختطاف، من الذي ذكر الاختطاف هنا؟ ومن الذي سيختطفنا؟

كان "برايزينج" واثقًا أنهم لا بدّ أن يكونوا القاعدة أو مجاهدي الاستقلال التونسيين. فردَّ عليه "سانفورد" بهدوء قائلاً إن تونس دولة مستقلة منذ عام 1956 وأكد:

- لا تَمُتْ في جِلْدك هكذا يا صديقي. إنهما الرجلان بالبدلات الداكنة في سيارتهما للدفع الرباعي. وهما لا يرغبان في اختطافنا دون شك.

- من هؤلاء الناس؟

- لا أعرف، لا بد أنهما TSWBS.

- تي إس دابليو بي إس؟!!

لم يكن لتلك الأحرف وقعًا جيدًا على "برايزينج"، فأراد أن يعرف "ما هذا؟".

نقنق "سانفورد" بالكلمات التالية باللغة الإنجليزية:

«Tunisian State Wankersin Black Suits»

"برايزينج" الذي لو لم يكن خائفًا كل هذا الخوف لأعلن حنقه بكل جدِّية. ربط في خياله دائمًا الطبقة الأكاديمية الإنجليزية بروح الدعابة التي تتَّسِم بالجفاف الشديد، وبأنها شديدة السواد، لكنها في الوقت نفسه رفيعة المستوى.

لكَمَهُ"سانفورد" في فخذه العلوي وقال بمزيج من اللغات:

- هيا أيها الصديق؛ استرْخِ، old chap, relax، إنهم من أمن الدولة، المخابرات الداخلية التونسية ، إس إف إن بي، أو أيًّا كان مُسَمَّى هذا النادي هنا.

سأل "سانفورد" بريبة:

- إس إف إن بي؟!!

صَهَلَ "سانفورد" كالفرس، وقال وهو يضغط على عجلة القيادة:

- نازعو الأظافر الساديون.

لهث "برايزينج" قائلاً:

- ماذا يريد هؤلاء منا؟ هل لذلك علاقة بالأبنية متعددة القمرات؟ هل زيارة مثل هذه الأماكن ممنوعة؟

- هم هنا لأجلك خصيصًا.

قالها "سانفورد" وهو يبتسم بخبث، ثم تابع:

- أعتقد أن مشرف المسبح أفشى سر جولتنا الاستطلاعية الصغيرة، والآن قلبت صديقتك أمن الدولة ضدنا حتى لا تضل أنت طريقك، يبدو أن تلك المرأة تعوِّل عليك حقًّا. كما يبدو أن لها علاقات جيدة أيضًا.

حملق كلاهما في المرآة الخلفية، بينما كانت سيارة الدفع الرباعي تتبعهما وهي تحافظ على مسافة البعد بين السيارتين.

سأل الإنجليزي محب المغامرة:

- هل تريد الإفلات منهم؟

لم أجد بُدًّا من تذكيره بمسئوليته كأب لا ينبغي أن يسمح بأن يجده أحدهم مهشمًا في سيارة محطمة تمامًا في قاع منحدر تونسي، لاسيما قبل ساعات من حفل زفاف ابنه، فضلاً عن كونه ابنه الوحيد. تلميح كان عليّ تركه لأن "سانفورد" بدا حينئذٍ كما لو كان يفكر مليًّا في دفع السيارة نحو الأحراش شديدة الانحدار، سواء كان ذلك بغرض الفرار من مراسم

المساء التي تتهدده، أو لأني ذكّرته دون أدنى حرص مني بفقدانه لابنته "لورا"، ومن ثم أيقظت داخله الحنينَ إلى الموت بشكل غير مباشر.

قال "برايزينج" وهو يتظاهر باللامبالاة:

- قرأتُ منذ فترة قصيرة، لكنني لم أعد أذكر أين، أن فقدان طفل يمكن أن يؤدي بصاحبه في لحظات توهج الأسى - حتى ولو بعد أعوام- إلى إصدار ردود أفعال لا يُحمد عقباها، ناتجة عن قرارات عفوية وسريعة.

أطبقت يديّ على حِجري في حركة لافتة وأسكتُّ نبش قدميّ الخافت في الحصى، كي أرسل إليه إشارة مفادها أنني بعيد كل البعد عن أيّ من لحظات الوهج العاطفي تلك، أملًا في أن يدعه من تلك المعلومة، ويواصل سرد حكايته. على أية حال" - هكذا التقط خيط حكايته بعد أن رمقني بنظرة أخيرة مرتابة بطرف عينيه - "ضغط "سانفورد" على الوقود ليزيد من السرعة بلا هوادة بحيث راحت الإطارات الخلفية تنزلق مع كل منحنى على الحصى، ونجونا نحن من السقوط بالكاد أكثر من مرة.

لم يتمكن "برايزينج" من التقاط أنفاسه مُجَددًا سوى بعد أن انتهى الطريق الجبلي المؤدي إلى هضبة مستوية ضيقة، وبدا ممتدًّا أمامهما مستقيمًا كالخيط. أما "سانفورد" الذي أفلتت منه فرصة الموت المحتمل

حالاً فبدا أنه فَقَدَ متعة المطاردة، وراح يقود على مهل، ويتوقف أمام مناظر الأبنية متعددة القمرات الكائنة تحت الأرض على اليمين واليسار، مرورًا بالطبيعة الساحرة؛ رغم كونها مقفرة. ظلت سيارة الدفع الرباعي تتبعهم محافظة على المسافة نفسها، وحين توقف "سانفورد" على جانب الطريق حاد مراقبوهما أيضًا صوب الرصيف.

حمل عالم الاجتماع الإنجليزي حقيبة الظهر على كتفيه، وأصرَّ على استكمال الطريق سيرًا على الأقدام. أما "برايزينج" – الذي لم يُبلغه أحد بأن لحقيبة الظهر ضرورة – فقد دس زجاجتي مياه في جيبي بنطلونه، ورغيفي خبز محشوين تحت قميصه، سرعان ما خلَّفا بقعًا دهنيةً رمادية في مقابلة مع بقع ماء الورد على بنطلونه. كان من الصعب عليه أن يلحق بالإنجليزي الذي كان يتقدم بسرعة، خاصةً أن زجاجات الماء التي تتدلى من جيب بنطلونه كانت تشده، وأن الكريم الواقي من الشمس – الذي دهنه على عجل أثناء السير – كان يُلهب عينيه. لم يبد له الأمر لائقًا أن يطلب من رفيقه الإنجليزي أن يُبطئ من خُطاه، إذ كان الأخير ثائرًا بسبب وجود ذوي البدلات الداكنة، وهو ما يرجع الفضل فيه – في نهاية الأمر – إلى "برايزينج"، وقد بلغ غضبه مداه حين استدار إلى "برايزينج" المتلعثم، فرأى خلفه مراقبيهما، اللذين لم يكلفا نفسيهما حتى بعناء تتبعهما سيرًا

على الأقدام، وإنما نَحَّيا سيارة الدفع الرباعي الثقيلة من الشارع، وحادا بها خلفهما، فراحت تحاول تفادي الحصى، وتدهس الشجيرات الشائكة على مهل، مثل جاموس كبير يرعى.

شعر "برايزينج" أن حاله أفضل حين بلغ على أطراف هذا الارتفاع مرةً أخرى أرضًا ليست شديدة الانحدار ويمكن صعودها بسلاسة، وشاهد خمسة تلال أشبه بفوهة البركان، تَعَرَّف عليها "سانفورد" على الفور بأنها الأجزاء الوحيدة المرئية من أحد الأبنية متعددة القمرات. زاد عالم الاجتماع الصلد من سرعة خُطاه لدرجة أن الصندل الذي يرتديه أخذ يصدر صوت طقطقة بينما راح "برايزينج" يلهث وراءه.

قال "برايزينج":

- في النهاية كانت تلك خيبة أمل؛ أقصد: كل هذه الإثارة، ومشرف حمَّام السباحة الذي خلَّفناه وراءنا، والاختطاف المزعوم، والقيادة برعونة على حافة الهاوية، والزحف على الأقدام الذي كان بالإمكان الاستغناء عنه. لا تُسِئ فهمي. فأنت تعرف مدى حماسي للثقافات الأجنبية، ولكن الأبنية متعددة القمرات تلك لم تكن سوى خيبة أمل كبرى في مواجهة كل تلك المصاعب والإثارة التي صاحبتها. ربما يكمن السبب في أننا لم نتمكن من مشاهدة المرافق سوى من الخارج، أو بالأحرى من أعلى، نظرًا لأن كل

المنافذ المؤدية إلى القمرات الكائنة تحت الأرض والأفنية المركزية داخل الأرض إما كانت مطمورة بالتراب أو مغلقة بأبواب خشبية سميكة وأقفال مدلّاة فضلًا عن تلك اللافتات المكتوبة باللغتين العربية والفرنسية التي تُحَذِّر بكل صرامة من الدخول ومن خطر انهمار التراب المرتبط به. إلا أنني متأكد من أن ما منع "سانفورد" من فضّ الأقفال الصدئة بحجر، لاستكشاف الممرات والقمرات الآيلة للسقوط لم تكن تلك اللافتات، بل وجود هؤلاء الرجال من جهاز أمن الدولة الذين كانوا يراقبوننا بالنظارات المكبرة من سيارتهم.

إلا أن "سانفورد" لم يشارك "برايزينج" شعوره بخيبة الأمل، بل كان منتشيًا، وأخذ يتلصَّص من خلال شقوق ألواح الخشب على المداخل المظلمة، ويسرع من ثقب لآخر وهو يطالب "برايزينج" المنهك بأن يتسلق ليصعد الحفرات المحيطة بالأفنية زحفًا على قدميه ورِجليه، وأن يستلقي على بطنه ويحملق في الثقوب الأرضية الطينية، التي يتفرع منها أركان وحجرات مظلمة، بينما يُصَوِّر بلا توقف حياة قبائل البربر الذين عاشوا قبل زمن بعيد في تلك الأبنية ذات القمرات المتعددة تحت الأرض. هنا أركان الطهي الفردية، لكل امرأة في القبيلة واحد خاص، وهناك حجرات من أجل الرجال، وهنا حجرات للدوابّ. في أثناء ذلك راح يلتقط عددًا هائلًا من الصور، وطلب من "برايزينج" أن يمسك به من حزام بنطلونه، كي

يتمكن من الانحناء أكثر عُمْقًا على حافة الفناء بغرض الوصول إلى زاوية مناسبة لالتقاط الصور.

أمسك "برايزينج" بحزام الإنجليزي المهترئ، بينما انبطح الأخير على بطنه، وتجاسر على الخروج بعيدًا فوق الجدار الأرضي المتهالك بما ينطوي عليه من خطر، ثم حملق في الأجزاء نفسها وهو مشدوه. أبْعَد "برايزينج" وهو مُتَحرِّج - عقلة إصبعه الممسك بالحزام الجلدي بعصبية، سنتيمترًا بعد سنتيمتر، خارج البنطلون بعيدًا عن مؤخرته البيضاء الخالية تمامًا من الشعر والنحيلة بدرجة مذهلة. عندئذٍ تَخَيَّل كذلك مؤخرة "بيبا" بما أنه يُواجه الآن مؤخرة زوجها العارية. وكاد يشعر بدوار، إذ اندفعت الدماء إلى خصره، من جانب، لأنه نجح في تصور مؤخرة معلمة اللغة الإنجليزية الرائعة؛ لا سيما في حضرة زوجها، ومن جانب آخر لأن مجهود الإمساك بعالم الاجتماع أجبره على حبس أنفاسه، مما أدى به إلى شعور لم يعهده سوى أثناء حصة التربية الرياضية وهو على حبل التسلق، ولكن أيضًا لأن منظر المؤخرة الرجالي شبه العارية تحت شمس شمال إفريقيا لم يؤثر به مطلقًا، الأمر الذي أدركه بدهشة. تصاعدت هذه المشاعر غير المعتادة والمتناقضة حينما تيقن أن كل هذا يحدث تحت أعين جهاز أمن الدولة التونسي المزودة بنظارات مكبرة، فضلاً عن أن لهاث الإجهاد الصادر عن رفيقه المصوِّر أخذ يعصف في أذنه مثل الإعصار.

لم يتبادلا سوى كلمات قليلة أثناء رحلة العودة. وقبل المنتجع بقليل، تجاوزا أحد سكان البلدة، الذي كان يرتدي تي شيرت "روني" لاعب فريق "مانشستر يونايتد" وعلى ظهره رقم ثمانية، وكان يمسك بلجام جمل مُزَيَّن ببهرجة. فقال "سانفورد":

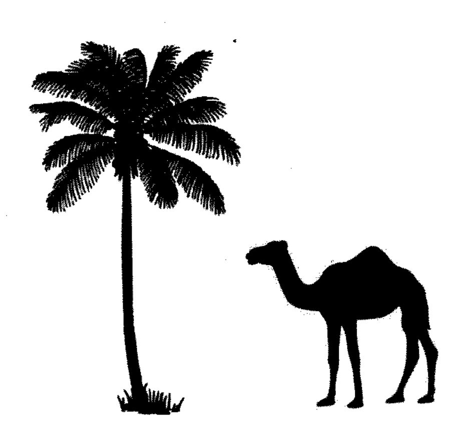
- إن الجمل من أجل زوجة ابني.

سأله "برايزينج":

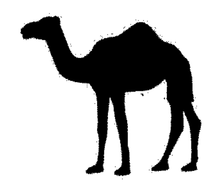
- وهل ستمتطيه وصولاً إلى المذبح؟

- نعم على ظهر جمل.





4



مرت رحلة العودةِ أكثر قتامة مما تَخَيَّل "برايزينج". كما لم تَبْدُ "سعيدة" مرتاحة على الإطلاق عندما رأته. من حسن حظه أنها كانت مشغولة للغاية بالتحضير لحفل الزفاف، ولم تستطع أن تمنحه سوى بضع دقائق من وقتها، ولكنها كانت كافية كي تترك "برايزينج" مُحْرَجًا بحقٍّ وراءها. "برايزينج" مُحَرَج يشعر بالخِزْي لأنها أوضحت له أن سلوكه الطفولي تسبب لها في تكاليف باهظة، ولم تُصَدِّق حججه الواهية عن"سانفورد". إنها لم تقلق عليه، وإنما أظهرت له بجلاء شحنة من الغضب، لاسيما ما جعلها تستشيط غضبًا، وتُعلن له بصراحةٍ أن وجوده والحفاوة التي استُقبل بها هنا لم يكونا فعلًا سوى من باب الواجب. كما ألمحت، أنها لكونها ابنة "سليم مالوخ"، فهي قادرة على طلب خدمة من أمن الدولة في أي وقت، ولكن تلك الخدمات لا تُسدى أبدًا دون مقابل، بل

على العكس تمامًا، لأن الثمن لا يُسَدد على الإطلاق في صورة مبالغ نقدية، وإنما - وبعد وقت طويل - يطلب هؤلاء خدمة في المقابل أيًّا كانت المساعدة المنشودة، على أن يرتفع دين الفائدة أيضًا بشكل لا يمكن التنبؤ به.

تسلل "برايزينج" وهو يُطلق لعناته على فنيّ القياس والموازين السابق "برودانوفيتش" الذي وضعه في هذا الموقف؛ ومر على بطل العالم للسباحة السابق من مسافة بعيدة، والذي كان يلعب تحت ظل أحد الأسوار مع كلبة صيد نحيلة وجِرائها الأربعة، وهم يمرحون حوله، وعاقبه بتجاهل واضح.

"بعد دشّ منعش لم يكن باردًا إلى حد كبير، مثل الذي سقط عليّ وبالكاد تحمَّلْته، أمسكتُ برواية "محمود المسعدي" وبإبريق من ماء الليمون وسلة تمر صغيرة، وصعدتُ الدرج حتى وصلت لشرفة "الباي"، حيث قابلت "بيبا" التي كانت غارقةً تمامًا في إحدى الصحف. بدَتْ سعيدة جدًّا لرؤيتي، وأخبرتني أن زوجها كان حالاً معها، وحكى لها بمنتهى الحماس عن رحلتنا. كانت سعيدةً لمرافقتي زوجها في رحلاته واعتنائي به، لأن "سانفورد" يميل في بعض الأحيان للتهوّر على حدّ قولها. لم أكن متأكدًا ما إن كنت قد أدَّيت واجبي على نحوٍ يرضيها. بدا لي

كما لو أني لم أتمكن حتى من رده عن تصرف متهور واحد. لكني على كلٍّ أمّنته بحزام البنطلون، عندما انحنى ليلتقط صورة فوق التلّ.

طلبت مني "بيبا" الجلوس إلى جوارها. سألتها كيف قضت يومها؟ ظلت تحاول أن تحفظ هذه القصيدة عن ظَهْر قَلْب؛ هكذا قالت وهي ترفع مَلزمة أوراق بيديها. كانت تنوي أن تُلقي القصيدة في المساء أثناء مشاركتها في حفل الزفاف، ولكن على ما يبدو أنه سيبقى دومًا من الصعب عليها أن تحفظ أشعارًا، ثم قالت إنها تخشى أن يكون ذلك أحد أعراض الشيخوخة.

- نعم، نعم.

أردفت معارضةً تأكيداتي من كون حدوث ذلك مستحيلاً لمن هو مثلها، وأن تجميل الكلام لن يُجدي، فسابقًا كان من السهل عليها - بلا شك - حفظ الأشعار بشكل فائق وإلقاؤها أمام الناس، ذلك الفعل الذي قلَّما تتجرأ على القيام به اليوم، فلديها انطباع أن اللحظات التي تَنْظِم فيها قصيدة تُعدّ دائمًا من أندر اللحظات.

ملاحظة: كنتُ متأهبًا للتأكيد فورًا على صحتها، ولكن.. - هكذا أضفتُ قائلاً - يجب أن يحدث العكس ومن ثم مقاومة ذلك بكل حزم، فالشعر وإلقاؤه لا غنى عنهما، فذلك ما يجعلنا بشرًا بدايةً ثم يحولنا لبشر حقيقيين.

لم تكن على استعداد لمتابعتي إلى هذا الحد، ولكنها ذكرت فيلسوفًا أمريكيًّا لقي حتفه- ولكنني لا أتذكر اسمه بكل أسف- وصف القدرة على الاستشهاد بالشعر بـالمقولة الإنجليزية: to be able to rattle off، some old chestnuts، أي ما يعني مجازًا: القدرة على استحضار أقوال قديمة بطلاقة. وإن تلك العبارة، وإن كانت غامضة بعض الشيء، إلا أنها بدت صائبة للغاية لي ولـ"بيبا".وذكرت "بيبا" أن لفظ ،rattle off، بالإنجليزية يعني سرد شيء ما بسرعة فائقة، ولكنه يُذَكِّرها في الوقت نفسه بذلك الصوت الدافئ الرنان الذي يصدر عن هزّ حبتين من الكستناء في يد مجوّفة. رأت "بيبا" أنه تشبيه جيد من أوجه عديدة، فاللفظ المعبِّر عن التكرار بسرعة وطلاقة لا ينكر المعرفة بوجود سخافة ما تنطوي عليها مسألة استحضار أشعار للاستشهاد بها في كل مناسبة؛ في حين أن حبات الكستناء تشير بوضوح إلى خريف العمر، وهي الفترة التي عاش فيها ذلك الفيلسوف الأمريكي، الذي لا يرد اسمه على خاطري مع الأسف، حين كتب تلك الأسطر، لأنه عايش تلك الفترة وهو يعاني من مرض عُضال مميت بالفعل. كما أشارت إلى أن ارتباط تلاوة القصائد الشعرية بخريف العمر وليس بربيع العمر أمر بديهي. تنهدت "بيبا" بشدة، وأغرقت نظرةً حزينةً في بحر سعف النخيل الكائن عند قدمينا.

شعرتُ بأسفٍ شديد لكون "بيبا" تعتبر نفسها في خريف عمرها، فقط لرغبة ابنها في الزواج، على الرغم من أنني يجب أن أقرّ أن هؤلاء

الشباب لديهم موهبة في منحك شعورًا بالكِبَر، إلا أن هذا لا يُعزى إلى ما يتمتعون به من مظهر شبابيّ سافر، كما افترض "برايزينج" على نحو خاطئ، ولا إلى شعورهم المنكوشة الغزيرة، ولا إلى بطونهم المسطحة أو خصورهم النحيلة. ولا يعود كذلك إلى صخبهم الهادر أو إلى أفعالهم المفعمة بالضجيج أو إلى ذلك الطابع التلاعبي الذي تنطوي عليه إيماءاتهم ونبراتهم الساخرة المصاحبة لجميع أقوالهم، بل يرجع أولاً وأخيرًا إلى قدرتهم على إخفاء تلك اللعبة التي يلعبونها خلف قناع من الجدية. وهذا لم يتسن لهم بطبيعة الحال إلا لقوة تأثير تلك اللعبة، وإن تلك القوة تَمَثَّلت في المال؛ في تلك المبالغ الطائلة التي يتداولونها يوميًّا، وفي الرواتب الخيالية التي يتقاضونها. كيف يمكن لشيء له مثل هذا التأثير الكبير على المجتمع أن يُستخفّ به في صورة لعبة؟!

أدرك "ويلي" نفسه مدى عبث تلك المطاردة، بعد انتهائه من ثالث زجاجة بيرة ماركة "هاينيكين" بينما كان يطوف في عَوَّامته الصفراء. حيثما يكون المال، تكون الحقيقة. وخطر على بال "ماري إيبوتسون"- التي أعطت أقراص الفحم لسانها مذاقًا شبيهًا بالغبار - أن هذا هو السبب وراء عدم اتفاق عامة الناس على ما يتكشَّف في نهاية قوس قُزح. فهي تعلم أن سكان جزر القنال يقولون إن الحقيقة تتكشف في نهاية قوس قُزح، إذ أن لديها قريبة تعيش على جزيرة "جيرنزي". أما في موطنها في ليفربول، فثمة أغنية أطفال تتحدث عن وجود كنز في نهاية قوس قُزح،ونظرًا لعدم

ثقتها في قدراتها التحليلية، فإنها لم تَقُد قطار الأفكار إلى النهاية، وظل الأمر بالنسبة إليها تصورًا مبهمًا، بأنه ربما تَكَشَّفت نهاية قوس قزح عن الناتجين معًا، عن المال والحقيقة على حد سواء.كما رأت أن ثمة احتمالًا آخر أكثر ترجيحًا، ومن شأنه أن يؤيد رواية قريبتها، ويتمثل في تساوي الناتجين، أي أن يكون المال بالتالي هو الحقيقة. وكان هذا الاحتمال منطقيًّا بطبيعة الحال، لأن لغة المال هي اللغة التي أدركها سكان "جرينزي" في نهاية المطاف، ولكنها استطاعت أن تُنَحِّي هذا الخاطر جانبًا، لأنها لم تستلطف قريبتها تلك في يوم من الأيام.

لم تُنَغِّص تلك الأفكار على آل "إيبوتسون" وحدهم، بل إن "سانفورد"- الذي كان يثق في قدراته التحليلية بشدة- لم يجد مفرًا من استخلاص وجهة نظر مقلقة؛ خلاصتها "أن المجتمع المُشَوَّه يصل إلى صيغةٍ مُشَوَّهةٍ ومبتذلةٍ" من أفكار "ويليام جيمس". فكرةٌ أزعجته، لأنه إن كان جيمس مُحقًّا - ولم يكن بَعْدُ مستعدًّا إلى حدٍّ كبيرٍ أن يشكّ في كونِ الشيء النافع هو الحقيقي - لكانت مشكلة الفجوة بين الدخول المتسعة على نحوٍ متزايدٍ - منذ أيام مارجريت تاتشر - ليست فقط مشكلة التوزيع غير المتكافئ للمال، وإنما أيضًا مشكلة التوزيع غير المتكافئ للحقيقة. تصورٌ أفزعه على المستوى المجتمعي، وتركه على المستوى الشخصي شاعرًا بتهميشِ حياته ووظيفته وقناعاته، وبالحَطِّ من شأنه إلى مجردِ شيء، ولكن لأنه لم يكن يشعر في ذلك الحين بأنه أصغر سنًّا بأي حالٍ من

الأحوال، فلم يُحَط بشأنه إلى ألعابِ الأطفال وإنما إلى ألعابِ أرباب المعاشات ..... شيء على الهامش أو على الرف، إلى الهوايات التافهة للمتقاعدين، إلى علم الاجتماع والجولف والكرة الحديدية وألعاب النرد مثل الطاولة والدومينو: كلها سواء.

باختصار: شَعَرَ بكِبَرِ سِنِّهِ في حضور ابنه وأصدقاء ابنه، فضلاً عن أن زوجته - التي كانت أقل ميلاً للفكر التحليلي - شَعَرت بوضوحٍ أنَّ الحوار حول الأسواق المالية شديد الذكورة بالمقارنة بمحاضراتها في اللغة الإنجليزية ونوادي القراءة وشغفها بالشعر يعتبر عديم النفع.

أما فيما يخص "برايزينج" فكان الأمر مختلفًا بعض الشيء، فإن كان المال هو الحقيقة، فسيحْظَى بقدر كبير من الحقيقة إلى جانبه. وبخصوصِ النفوذ المالي فمن المفترض أن يكون له السلطة لتفسير ما ينبغي أن يُؤْخذ بجديةٍ أو هزل، فلِمَ يخش "برايزينج" على هذا النحو من تعالي تجار المشتقات والمسؤولين عن تطوير المنتجات الذين يحيطون به؟!

فَكَّرْتُ في الأمرِ ثم رفعتُ حفنةً من الحصى، إنه لأمر في غاية البساطة؛ هذا لأن "برايزينج" لم يستطع التعامل مع المال؛ لا لأنه بالتحديد اسْتَنْفَدَ المال، ولا لأنه بَدَّده، كلا، على العكس تمامًا؛ لأنه قلَّمَا كان يُنْفِق منه شيئًا، ولهذا السبب على وجه الخصوص كان تصرفه غير مسؤول.

خَشِي "برايزينج" من المال تمامًا كما كان يخشى من جميع الأدوات؛ ليس لأنه قد يقطع إصبعًا دون قصدٍ، أو يشد عليه قليلاً، ولكنه خَشِي من قوة تأثيرِ الأدوات، تَذَكَّرَ مرتعدًا كيف أنه شاهد رَجُلين أثناء التزلج على جبال "ديابلريتس" الجليدية يقطعان كابلاً حديديًّا في سُمْكِ الذراع، لقضيب تزلجٍ جديدٍ بواسطة آلةٍ - كما بدت له - صغيرةٍ للغاية وذات قوة تأثيرٍ جبارة، واعْتَقَدَ أنه يُدْرِك أنَّ المال في نهاية المطاف لم يكن أكثر من مجرد أداة قوية فعَّالة بالأخص، لم يكن سوى أداةٍ لتحقيق ما هو أكثر عَظَمَةً بل وعُلُوًّا، كما وَضَّحَ لي "برودانوفيتش" يوم الجمعة الماضي وقتما كان يزور "برايزينج"، وقَدَّمْتُله نفسي في هذه المناسبة.

بطبيعة الحال لم يكن "برايزينج" مُستعدًّا أن يُمْعِن التفكير أكثر مما ينبغي فيما هو أكثر عَظَمَةً وعُلُوًّا. عَلَى أَقَلِّ تَقْدِيرٍ لم يكن مستعدًّا أن يتمادى في التفكير، لم يكن مستعدًّا أن يَحْمِل على عَاتِقه المسؤولية المقترنة بذلك، فتجاهلَ التوقعات المنتظرة منه؛ حيث اكتفى ببساطة بأن يكون غنيًّا، بل - كما أظن - غنيًّا جدًّا، بَيْدَ أنه كان يعيش كمواطنٍ عادي، باستثناء مدبرة منزله، التي تَحَمَّلَ نفقاتها؛ لأنها تَوَلَّت عنه اتخاذ قرارات كثيرةٍ في حياته اليومية.

حينئذٍ فَكَّرتُ في نفسي قائلاً: إن ذلك له علاقة بإعمال الفكر، إذ إنني أشكّ أن "برودانوفيتش" بذل جهدًا كبيرًا على وجه الخصوص في ذلك

الصدد. مسألة لم أعطه فيها حق قدره، رغم أنني لم أعرفه سوى من حكايات "برايزينج"، ومن خلال لقاء قصير بالمصادفة تحت ظلال السور الأصفر. ولكني لم أظلمه ظلمًا كبيرًا على ما يبدو، بل وضعته في مصافّ جموع مشاركيه في تحقيق الإنجازات، أصحاب القرارات الكبرى وأصحاب الدخول الفلكية الذين كانوا دائمًا على استعداد أن يُصَرِّحوا حسب الطلب أن المال ليس دافعهم، وأنهم لا يتقاضون المال من أجل المال في حد ذاته، كما لو أن هناك أي شخص قد يريد أن يتهمهم على سبيل الهزل بأنهم يحشون أموالهم في أوعية مربعة الشكل وأنهم يدسون مؤخراتهم داخلها. لا، لا، ما المال إلا وسيلة للغاية، فهو يُتيح الإمكانات، إمكانات لفعل أمور كبرى، حيث يتبدى حجم الأفعال غالبًا في الأمتار المربعة لشقة سكنية بشبه جزيرة "كاب فيرات" الفرنسية أو في أطوال اليخت الراسيفي جزيرة "سانت بارتيلمي"، أو يتبدى كذلك في أحسن الأحوال في شراء مصنع لشماعات حمَّالات الصدر في بنجلاديش، من شأنه أن يجني المزيد من الأرباح التي "يمكن أن تسهم في تحريك الأمور"، على حد تعبيراتهم التي يفضلونها. ألا تكون الأموال متروكة لحالها فهو أمر يكمن في طبيعة الأمور، تلك كانت الفكرة من الأساس. لماذا إذن يحاولون أن يبيعوا لنا ذلك على أنه اكتشاف خاص بهم، ولماذا يعتقدون أن ذلك من شأنه أن يُحَسِّن من أي شيء؟!

عندئذ فكرتُ بحنق، ولم أتمكن من احتمال الأمر أكثر من ذلك وأنا جالس على مقعد الحديقة. فقلت لـ"برايزينج" بنبرة وقحة: "هيا أكمل".

وتركتُ حبات الحصى تتساقط، وتابعت سيرنا. أما "برايزينج" الذي اعتبر طلبي منسحبًا على قصته وليس على نزهتنا سيرًا على الأقدام، فقد حاول جاهدًا أن يستجمع حبل أفكاره ثانية.

حينها تابع قائلًا:

- "على أية حال، بدت "بيبا" في حالة مزاجية حزينة، وحاولتُ أن أُخرجها منها بتوجيه أسئلة عن ماهية القصيدة التي اختارتها لحفل زفاف ابنها. فقالت: إنها قصيدة طويلة كتبها شاعر لم يكن معروفًا لي آنذاك. وكما بدا لي فهو شاعر أمريكي مغمور اسمه "سنيدر"، شاعر من شعراء جيل"الـبيت Beat"[1]، ومن معتنقي مذهب الزِن، ومؤسس مشارك لإيكولوجيا الروح الأمريكية. عليك أن تقر بأنه مزيج مُرَكَّب حقًّاً. على أية حال، طلبتُ منها أن تُلقي القصيدة عليّ لأني لا أعرفها، وهو ما فعلته بعد فترة تردد طويلة، إذ ألقت القصيدة بلغة إنجليزية بلكنة بريطانية لا يُضاهيها شيء.. آخر روعة".

---

(1) هي مجموعة من الكتاب، والجيل الذي تأثر بكتاباتهم في الولايات المتحدة الأمريكية ظهر في عقد خمسينيات القرن العشرين .تمحورت ثقافة "البيت" على تجربة العقاقير، وأشكال جديدة للجنس، واهتمام بالديانات الشرقية، ورفض الاقتصاد المادي، ورفض التمجيد، وغيرها من وسائل التعبير المعاصر. (المترجمة).

اتخذ بعض الخطوات السريعة وهو يقفز، ثم سبقني ووقف أمامي ليسد عليّ الطريق، وأخذ نفسًا عميقًا وردد بأسلوب شعري:

(The Axe Handle

By Gary Snyder).

نعم أحفظها عن ظهر قلب، لأني أثناء الضجة التي وقعت في الأيام التالية، وهو ما سوف يرد ذكره لاحقًا، اقترضت ورقة "ببيا" في لحظة لاستحضار الفكر وأنقذتها من لهيب النيران. وهي الشيء الوحيد الذي تبقى من تلك المغامرة، لذا لطالما طالعتها حتى حفظت القصيدة عن ظهر قلب".

ثم فرد ذراعيه، سواء بغرض منعي من الهرب أو بغرض منح كلماته المزيد من قوة التعبير، وبدأ يُلقي القصيدة وهو يُقَلِّد معلمة اللغة الإنجليزية بطريقة أو بأخرى ولكن بلكنة قوية نطق فيها كل تركيبة للأحرف«the» التي تستوجب إخراج اللسان أقرب إلى«sse»:

The Axe Handle - Gary Snyder

One afternoon the last week in April

Showing Kai how to throw a hatchet

One-half turn and it sticks in a stump.

He recalls the hatchet-head

Without a handle, in the shop

And go gets it, and wants it for his own.

A broken-off axe handle behind the door

Is long enough for a hatchet.

We cut it to length and take it

With the hatchet head

And working hatchet, to the wood block.

There I begin to shape the old handle

With the hatchet, and the phrase

First learned from Ezra Pound

Rings in my ears!

"When making an axe handle

the pattern is not far off".

And I say this to Kai

"Look: We'll shape the handle

By checking the handle

Of the axe we cut with"—

And he sees. And I hear it again:

It's in Lu Ji's Wên Fu, fourth century

A.D. "Essay on Literature"——in the

Preface: "In making the handle

Of an axe

By cutting wood with an axe

The model is indeed near at hand".

My teacher Shih-hsiang Chen

Translated that and taught it years ago

And I see: Pound was an axe.

Chen was an axe, I am an axe

And my son a handle, soon

To be shaping again, model

And tool, craft of culture.

How we go on.



يد الفأس

ذات ظهيرة في آخر أسبوع من أبريل

أشرح لـ"كاي" كيفية إلقاء بلطة

لفة ونصف فإذا بها تنغرز في جذع شجرة

أتذكر وأنا في ورشتي رأس فأس

بدون يدها

وهو يذهب لإحضارها لتكون له.

يد فأس مكسورة خلف الباب

طويلة بما يكفي لتصبح يدًا للبلطة،

نقطعها بالمنشار لتناسب رأس البلطة

ونأخذها هي ورأس البلطة ونذهب لتركيبها

وحينها رنت كلمات إزرا باوند في أذنيّ!

"عند تشكيل يد الفأس



لا نبتعد كثيرًا عن النمط المألوف."

ثم أقول لـ"كاي"

"انظر: نحن سنشكّل اليد بأن نختبر يد الفأس

الذي نقطع به- "

فيفهم. وأسمع مُجددًا:

في كتاب "فن الكتابة" لـ"لو تشي"

الذي كتبه في القرن الرابع بعدالميلاد

قال في مقدمة كتاب "مقال في الأدب":"عند عمل يد

فأس

نقطع الخشب بفأس

ويكون النموذج في متناول اليد."

معلمي شي-هسيانج تشين

ترجم هذا الكتاب ودَرَّسه منذ سنوات عِدَّة

حينها فهمت: أن باوند فأس،

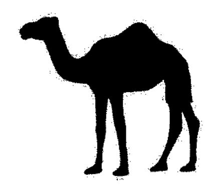
وتشينج فأس، وأنا فأس

وابني يد فأس، وسرعان

ما سوف يتشكل مجددًا، نموذجًا

وأداةً، ثقافة حياة،

هكذا نواصل ونستمر.



على شرفة "الباي" انساق "برايزينج" وراء القوة البلاغية للشاعر الأمريكي وغرق في عَينَيْ مُدَرِّسة اللغة الإنجليزية رائعتي الزرقة، دون أن يلحظ تجعيدات جبهتها التي تزداد وضوحًا. وما إن انتهت حتى سادت لحظة صمت بينهما. لم يُسمع سوى صوت حفيف سعف النخيل، حتى قطعت "بيبا" الصمت بكلمة إنجليزية قصيرة من كلمات القوة، تحتوي حرف "ف" بنبرة مشددة. "برايزينج" الذي رأى أنه اعتاد على الأسلوب الفظّ في التعبير لدى طبقة الأكاديميين الإنجليز بعد رحلة خلوية ليوم واحد مع زوج "بيبا"، اعتقد أنها بذلك لا تُعَزِّز سوى موافقتها على أبيات

الشعر التي أُلقيت لتوِّها، وأخذ يصارع لإيجاد الكلمات التي بدت له كلها غير كافية. وقد كانت كذلك بالفعل، فهو قبل كل شيء يتفاهم معها بلغة أجنبية بالنسبة له. وأخيرًا جرَّب التواصل قائلًا: "نعم، حقًّا.." indeed....Yes. وما لبث أن قطع حديثه ليبدأ من جديد، ويحاول قدر المستطاع أن يقول:

The apple does not fall far from the stem

وأن هذه الحقيقة المعروفة للجميع يمكن أن تطبقينها بطريقة لا يمكن تقليدها.

حَدَّقت "بيبا"، التي بدا عليها أن هذا التحليل كان مقتضبًا بالنسبة لها، بنظرة مُبهمة في الفراغ متجاوزة ذلك. ثم أوضحت مُسترسلة: إنها لم تكن أبدًا لتجعل – بذلك- من نفسها أضحوكة، حيث يعلق البعض: فيم كانت تفكر - حين ذاك؟! وأنه من الواضح أنها أخطأت تقدير المقاس عند صناعة مقبض الفأس؛ حيث إنها حتى الآن لا تستطيع أن تتوقع أن يفهم ابنها المغزى السامي للأبيات، ناهيك عن الإفصاح عن عواطفها، إذ إنهم لم يسْبق ــ أبدًا ــ وأفصحوا عن عواطفهم تجاه شيء ما، فضلًا عن أن الوقت الآن متأخر جدًّا للتوجيه التربوي.

وأكملت:

- لقد أخطأنا كثيرًا.

وهنا ضمَّت "سانفورد" للحديث تحديدًا، وتابعت قائلة:

- لم نفلح في أن ننقل إليه ما بدا لنا مُهمًّا ونورثه إياه.

غرق "برايزينج" في الصمت، فأكملت هي:

- يمكننا تأويل ما آلت إليه المطرقة بطريقتين مختلفتين: فإما أنها شُكِّلت برداءة أو أنها لم تلعب دورها جيدًا لتمثل قدوة حسنة. والتفسير الأول هو الأقرب، حيث إنها بالكاد تتعرف على نفسها مرة أخرى لدى ابنها، فهي ترى أن هذا لن يتغير قط بإلقاء قصيدة في حفل زفافه.

شَعَرَ "برايزينج" بأنه مُطالب بألَّا يَدَع هذه المرارة تَمرّ مرور الكرام؛ فبدأ حديثه قائلاً:

- إنه بالتأكيد يصعب عليها حاليًّا - وهذا ما يرجع سببه لطبيعة المجال والظروف - رؤية أنها كانت قادرة دون شك أن تمنح ابنها أكثر مما تظن .

واستطرد مُوَجِّهاً كلامه لها، وقد أشعلته كلماتُه ذاتها حماسًا:

- ولكن "بيبا" لا تنسى أن هذه القصيدة تعود لزمن بعيد؛ تعود إلى التاريخ، تاريخ العديد من الأجيال، وسوف تستمر في المستقبل، إلى أجيال مُقبلة.. الأمر يدعو للتدبر، إنها سلسلة الوجود الكبرى، فحتى ابنك نفسه سيصبح ذات يوم أبًا، وحينها سوف يتذكر مقولاتك. هذه القصيدة مهمة، لذا فلتلقها مساء اليوم.

رمقته بنظرة ريبة من طرف عينيها وقالت له:

- أتقصد هذا حقًّا؟ بهذا سأضع نفسي موضع الحرج؟

صاح "برايزينج" الذي يفقه القليل عن علاقة الفتية المراهقين بوالديهم وقد انتابه الحماس:

- لا! بل أعني أن تقرعي حبات الكستناء ببعضها!

- هل ستقرع حبات الكستناء ببعضها؟!

بتلك الكلمات قاطعه عالم الاجتماع الإنجليزي، حين ظهر بَغتةً على الشرفة الحجرية، وتفحص "برايزينج" متهكمًا، كما لو كان ذاك يمنع زوجته من عرض غير لائق، ولا يجب أن يؤخذ على محمل الجد.

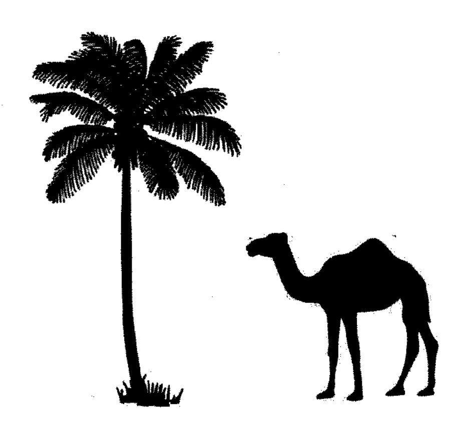
تأهب "برايزينج" لتوضيح أطول عما سبقه، افتقد فيه بصورة كبيرة اسم الفيلسوف الذي سبق أن نسيه، إلا أن "بيبا" قاطعته على الفور مُطالبة زوجها عدم ترهيب صديقهما الجديد.

كان "سانفورد" قد حضر ليطلب من "بيبا" مناقشة بعض التفاصيل الأخيرة مع "سعيدة"، لأن السيدة "إيبوتسون" لا تشعر بالارتياح فيما يخص ترتيب المائدة، ولأن الغموض لا يزال يُخَيِّم على الأمر، وهو ما لن تناقشه"سعيدة" إلا مع أحد أفراد العائلة.

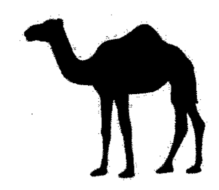
اعترضت "بيبا" بشدة في البداية مُبَرِّرة ذلك بأنه- أي سانفورد - يستطيع تولي الأمر بكفاءة، إلا أنه أحاط زوجته علمًا بأن "سعيدة" لم تخاطبه جيدًا منذ بداية معرفتهما حتى الآن، الأمر الذي لا يعرف له سببًا، فهي تبدو له امرأة مُعقدة جدًّا، نعم؛ مُعقدة، وذات طبيعة شديدة الحساسية.

حَدَّقت "بيبا" في زوجها بريبة، بينما كان يصب تركيزه على التقاط شريحة ليمون من كوب الماء الخاص به، وابتهج من استقرارها في قاع الكوب. حينئذٍ نهضت "بيبا" وطبعت قُبلة على عنق زوجها الرفيع والمحلوق حديثًا، وقبل أن تنصرف تَرَجَّت "برايزينج" أن يحل ضيفًا عليها في المساء، وأكدت أنها سوف تسعد هي و"سانفورد"عند استقباله، كما أن "مارك" و"كيلي" لن يعترضا بكل تأكيد. فاعترض "برايزينج" مُعَلِّلًا ذلك بافتقاره لملابس تتناسب مع مناسبة كهذه، إلا أن الاثنين أقنعاه

بأنه ليس من الضروري الالتزام بالملابس الرسمية. وأضاف "سانفورد" أنه يرى البدلة القطنية المُخَطَّطة مناسبة تمامًا، موضحًا أن ما ينقص حفل زفاف إنجليزي في صحراء تونس، رجل أعمال سويسري يرتدي ملابس "اليانكي" الخاصة بجنوب أمريكا.



5



سارع "برايزينج" بارتداء بدلته القطنية المخططة مرةً أخرى في الوقت المناسب، حينها رجع بذاكرته إلى الوراء ليتجلى أمام ناظريه مشهد العشب الأخضر الرائع الذي أُقيم عليه حفلٌ في منتجعات "هامبتون". وبمناسبة هذا الحفل اشترت له صديقته، التي رافقته، هذه البدلة المخططة. وأثناء الطريق أسكرته بعدد هائل من الكؤوس الفضية المليئة بكوكتيل البوربون بالنعناع، ولم يستطع "برايزينج" التخلص من كل محاولاتها الواضحة لغوايته بكل التداعيات غير المتوقعة إلا عند تحطيم اثنين من أصابع قدميها - بلا قصد - بمضرب الكروكيت في ساعة متأخرة، على يد صبي يبلغ من العمر ثمانية أعوام، يرتدي بنطلونًا به كسرة أمامية وحذاء "موكاسين" مقاس 34، وهو أحد الأطفال الأشقياء كثيري الحركة الذين يملؤون المكان.

فاحت من القميص الأبيض المُلطخ ببقع ماء الورد في الظهر ـ رائحةً نفاذة بعض الشيء، ويرجع السبب في ذلك إلى تصبب العرق من "برايزينج" أثناء محاولته إقناع "سعيدة" بالاهتمام بجولات عالم الحشرات الروائي"نابوكوف" خلف بحيرة جنيف. قام بمحاولة واهية لمواجهة ذلك المأزق بسكب كمية أكبر من الكولونيا تحت الإبطين، وتحاشى السؤال الصعب عن زر القميص الثاني بأن حاول أثناء إغلاق الأزرار التحقق من عدد حبات كورن فليكس في النسخة الأصلية من سلسلة "المادلين" للفرنسي "بروست"، ذلك التسلسل الذي عانى من أجل حفظه عن ظهر قلب، لأنه اكتسب على مدار حياته خبرة أن الحديث عن كعك "المادلين"- وربما أيضًا كل أنواع الطعام المرتبطة بذكريات الطفولة - تدخل كموضوع محبب للنقاش في مثل هذا الموقف الاجتماعي.

هكذا خرج من الخيمة مُتجهًا ناحية الضوضاء بحماسٍ منقطع النظير وأكتافٍ ممشوقة، فسلك طريقه من خلال غابة النخل حتى وصل إلى حمَّام السباحة الذي تصدر منه هذه الضوضاء. إنه حمَّام السباحة الذي التف حوله تدريجيًّا العديد من الحاضرين بكؤوس الشمبانيا وبأطباق من الأطعمة الشهية للاستعداد لبدء الحفل. كان ذلك في الوقت الذي تناهت له قهقهة صادرة من بعيد من أصوات ثرثرة العديد من الحاضرين والضاحكين، وهي القهقهة التي استطاع "برايزينج" معرفة صاحبها دونما عناء، إنه الشخص الذي شد انتباه "برايزينج" منذ الوهلة

الأولى، حيث كان أكبر في العمر بضعة أعوام عن بقية الحاضرين، وتَمَيَّز - من النظرة الأولى - بكونه الشخص الوحيد الذي برز له بطنٌ كبيرٌ، وهو نفسه الذي أراد أن يُظهره عيانًا للناظرين عن قصدٍ منه. حينها سمع "برايزينج" كيف أن الأشخاص الأصغر منه سنًّا ينادونه بـ"كويكي". وبدا له أنهم يكنون لهذا الرجل كل الاحترام؛ برغم اسمه الهزلي، وبدا له أيضًا أنهم يتجنبون -حتى ولو بداعي الصداقة- أن يضعوا أيديهم على كتفه، لكن على النقيض الآخر، تقبّلوا هذا الأمر كأنه امتياز له.

كان يزمجر بلغة عربية بدائية ليعطي الأوامر للعاملين. كان وجه "كويكي" الذي لا يتجاوز الأربعين عامًا - حسب تقدير "برايزينج" - مُجهدًا في لحظات غير ملحوظة. دون ذلك فقد أظهر رجولة عدوانية بدت لـ"برايزينج" وضيعة وجنسية للغاية. تراه "بيبا" ضبعًا وسط نمور صغيرة، أو كما يقول عنه "سانفورد"عندما رآه يقدم قفزة في حوض السباحة بمؤخرته ممسكًا زجاجتين من البيرة في يده: الوغد الأكبر وسط الأوغاد.

شرح "برايزينج" لي "معنى كلمة "Casual"، وقال:

- "في مثل هذه الدوائر هو عدم ارتداء كرافتة وترك السُّترة مفتوحة".

ارتدى الشباب بليزرات ضيقة ذات مقاسات دقيقة وقمصان فاتحة اللون، كما لو أنهم يرتدون ملابس العمل اليومية، باستثناء الكرافتة

وأزرار القمصان المفتوحة. وارتدت الفتيات فساتين خفيفة من الحرير من صُنع بيوت الأزياء الألمانية، وانزلقت فتحات الصدر الواسعة من على أكتافهن النحيلة، كما لو أن ذلك كان دون قصد، لتكشف عن عظام الترقوة التي تُذكِّرني بالهيكل العظمي المشوي لدجاجة.

أكد "برايزينج" بقوله:

- "تنتهي "كِنَارَات" الفساتين فوق الركبة التي عادةً ما تكون مدببة، إلا أن الشمس منحتها لونًا برونزيًّا خفيفًا".

كانت"بيبا" ترتدي فستانًا بلا أكمام من قماش الكتان الذي تماشى مع لون عينيها بدقة، ليُشَكِّل نقيضًا قويًّا للون شعرها الرمادي، حيث أضفى عليها هذا المظهر سحرًا.

قَدَّمت لي آل "إيبوتسون"، وهما زوجان يتسمان باللطف. تجاذبتُ معهما أطراف الحديث بحيوية ومرح عن مدينة ليفربول ونحن نجلس تحت مظلة كبيرة بعيدًا عن الصخب، وكانت "ماري إيبوتسون" تشرب الكثير من المياه المعدنية ماركة Perrier، ولم تتحدث إلا قليلاً. أما زوجها وهو رجل نقابي كتوم للغاية من الطراز القديم فقد أعيته حرارة الجو، وراح يرتشف بتردد من شراب الشامبانيا وردية اللون، وأراد إقناع زوجته الشاحبة بتناول "تيمبورا" الجمبري التي حرص على إزاحة صوص المايونيز الحارّ من عليها. وأقسم لها - بنوع من البراجماتية

النمطية والصحية لطبقة العمال - بأنها ليست إلا الأكلة الشعبية الشهيرة "سمك وبطاطس" (Fishand Chips) لكن بلا بطاطس.

وأخيرًا قُدر لي التعرف على "مارك"، الذي ظهر بين الجمع الكبير لأصدقائه مرتديًا بدلة سوداء وقميصًا مفتوحًا غير رسمي على بار حوض السباحة. للأسف لم يحظ من مظهر "بيبا" الخارجي الآسر إلا بالقليل، لكنه ورث أكثر من والده طول القامة والنحافة المعهودة في معتنقي المذهب البيوريتاني. وبغض النظر عن ذلك فيجب أن أقرّ أنني وجدته شابًّا جذابًا للغاية يتمتع بأدب جمّ. وأدركت من الوهلة الأولى المجهود الذي بذلته "بيبا" في هذا الصدد، وكيف بثت فيه جوهرها الودود الطيب.

دفعتني هذه المشاهدة كي ألاحظ أنها خَيَّطت فستانها بدقة وقَصَّته بنجاح، ما دفع "سانفورد"- غير المدعوّ إلى حديثنا - لرفع حاجبه بسخرية، وهو ما قصدت أن أغضّ الطرف عنه.

شكرت "مارك" بشدة على الدعوة الكريمة، وبدا سعيدًا حقًّا لأن والديه وجدا في رفقتي شريكًا محل ثقة في الحوار، خاصةً أنه أدرك أن الوضع صعب بعض الشيء بين والديه ووالدي "كيلي"، برغم أن كل المشاركين لم يتعبوا في التأكيد على أن سبب ذلك هو المعدة الضعيفة للمسكينة "ماري إيبوتسون"، وعدم قدرة والد "كيلي" على العرق، كما

أكدت لي ابنته في وقت لاحق من هذه الأمسية، حيث قالت لي إنه مثل القوارض في هذا الصدد.

سألني "برايزينج":

- "ألا تعلم أن القوارض لا تعرق، وكذلك الخنازير، ومعظم الحيوانات المفترسة لا تعرق إلا عند المفاصل!! أما الجِمَال فهي أكثر من ذلك، لأن لديها عدد هائل من الغدد العرقية، فهي أشبه بالجوال الممتلئ بالمياه، إلا أنها لا تفقد المياه إلا عند الضرورة القصوى".

أجبته:

- لا! لم أكن أعلم، لكنني الآن أعرف.

وسألته عمَّا إذا كانت هذه التفاصيل عن قدرة أنواع مختلفة من الثدييات على التعرق لها دور في قصته أم لا؟

اعترف "برايزينج" قائلاً:

- "لا! بل الأمر يتعلق بحقيقة مدهشة وجديرة بالانتباه، لكن الجِمَال تُمَثِّل الموضوع الأساسي في قصتي".

كان يجب أن يظهر جمل في الصورة مرة أخرى. وبعد الاستقبال بالشامبانيا على حوض السباحة توجَّه الجمع وقت الغروب عبر غابة النخيل إلى فتحة صغيرة كان بها أطلال مسرح روماني من الصخر المنحوت بصعوبة، وبقايا أعمدة من الأسمنت على غرار مدينة قرطاج، وبه خشبة مسرح صغيرة تُقام عليها بعض العروض الفولكلورية لضيوف المنتجع من حين لآخر. ألقت مصابيح قوية بأنوارها الملونة من الأرض إلى جذوع النخل وسعفها التي تحيط بالفتحة ومجموعة من الأضواء الكاشفة المعلقة على حزام مكسوّ بالجص فوق خشبة المسرح، لتغوص الخشبة والجمهور الجالس في نصف دائرة في مجموعة من الأضواء الملونة. وألقت بعض من المشاعل الحديدية بظلالها المرتعشة على المشهد، لتكمل الإضاءة التي استقدموا لها متخصصًا إضافيًّا من العاصمة تونس، تشاجر بشدة مع منسقة الزهور البورمية القادمة من مدينة "أنتويرب" البلجيكية، لأنها حاولت التدخل في تركيبته للألوان، لأن رقائق التنقية بنفسجية اللون لا تتفق مع اللون الوردي الناعم لأزهار الألستروميريا (زنبق بيرو).

رافقت "جيني" الضيوف إلى أماكنهم على المدرجات الحجرية والمقاعد المكسوة بقماش من الكتان الأبيض. و"جيني" هي عاشقة للسيارت الرياضية من الطراز الألماني، وصديقة العروسة المقربة ومُنظمة الحفل.

انبعثت موسيقى خافتة لطبول ودفوف من أسطوانة مدمجة بعنوان *"WindsoftheDesert"* أي "رياح الصحراء"، استعارتها "جيني" من مدربها الخاص باللياقة البدنية.

لعب "كويكي" دور مُقَدِّم الحفل. صعد خشبة المسرح بصدر مشدود، ليتفقدها بخطوات مثل النمر مرةً أو مرتين، قبل أن يرحب بالضيوف بذراعين ممدودتين، بمناسبة زفاف "كيلي إيبوتسون" و"مارك راياني جرايلينج". ثم طلب من "مارك" الصعود إلى المسرح، حيث اندهش "برايزينج" لأنه خلع حذاءه وجوربه، ووقف حافي القدمين في بدلته ذات اللون الأزرق الداكن، حائرًا بعض الشيء بين أعمدة الجبس. رفعت "جيني" من صوت الموسيقى. وفي الخلفية اتضح ظلّ شامخ لجمل من وسط غابة النخيل. وجلست "كيلي" التي كانت أيضًا حافية القدمين، جلسة القرفصاء على الجمل المزدان، وحاولت أن تتحلى بمظهر العروس المبجلة والفاتنة أيضًا، برغم التأرجح والتمايل.

أجبرت "جيني" قائد الجمل الممسك بلجامه على أن يستبدل بزي لاعب كرة القدم "روني"ملابس أخرى قامت بحياكتها فتاة متدربة في البورصة، على غرار زي فرسان الطوارق الذي اقتبسته من صور أحد كتالوجات الشركات السياحية.

توقعت هذه المتدربة حصولها على دعوة لحضور الزفاف لكن بلا جدوى. كانت "جيني" سعيدة بالتجهيزات. تباين فستان "كيلي" الأبيض البسيط على نحو رائع مع الأقمشة ذات اللون النيلي، معطيًا التأثير الذي قصدته بالضبط، والذي بسببه رأت أن ملاحظات المتدربة الخاصة بعدم وجود طوارق في تونس - غير مهمة.

أثناء محاولة صعود الجمل للمدرج الثاني مُتَوجّهًا إلى خشبة المسرح تعثر محارب الصحراء المزيف على الأقمشة القطيفة الطويلة للغاية نيلية اللون، لأن لثامه الذي لم يَعْتَد عليه حجب مجال رؤيته، وخاف الجمل لدرجة أنه رفض التقدم خطوة أخرى، كما لم يكن في الإمكان تحريكه كي ينحني بالطريقة المعتادة ليسمح للعروس بالنزول من فوق سنامه بِخُيَلاء. أقنعه صاحب الجمل وشد اللجام، وقد ازداد نفاد صبره. في الوقت نفسه بدأ "كويكي" في ركل الجمل في ركبته من الخلف. أنهت "كيلي" المشهد المخجل بقفزها من أعلى سنام الجمل إلى ذراعي عريسها الذي وقف في انتظارها، الأمر الذي بدا مشهدًا رومانسيًّا للغاية، على الرغم من أنه لم يكن مخططًا له، ودفع ذلك "كينيث إيبوتسون" في رفع ذراعيه لأعلى صارخًا بقوله:

"Bring her home, son "فلتعدها إلى البيت يابني

قال "برايزينج":

- "ألقى "كويكي" خطبة أطول لم أفهم منها إلا القليل، ولم يبهرني ذلك، لأنه استخدم الأسلوب الذي أعهده في كلمات مستشاري الشركات الذين تنفق عليهم شركتنا أموالًا طائلة بناءً على رغبة "برودانوفيتش"، ودائمًا ما يصعب عليّ أن أتابعها. تناولت الخطبة الحديث عن الاندماج، وموقف الربح للجميع والأرباح والمكافآت والعمل الجماعي والاستثمارات في المستقبل. وبأسلوب بليغ ولبق زيّن "كويكي" كلامه بعبارات استعارية قتالية، وبإكليشيهات من حكم وأقوال الشرق الأقصى، عن الشجاعة والقدرة على التحمل، والقوى المتناقضة، والإرادة، والخضوع، وقوة المياه الجارية، وحكمة الأحجار.ثم قرأ أكثر الأصدقاء المقربين من العروسين أمنياتهم التي صاغوها بحماس، والتي تتناول عبارات الدعاء بالصحة والسعادة، كما لعب الدعاء لهم بامتلاك العقارات والمناصب القيادية في سنغافورة دورًا في أمنياتهم للعروسين. ثم ألقوا الأوراق التي سَطَّروا عليها أمنياتهم في النيران. وتبع ذلك إعلان "كويكي"الشابين: زوجًا وزوجة. تبادل الزوجان الخواتم، وتبع ذلك طقس آخر تطلب منا جميعًا أن نشبك أيادينا سويًّا، ونلتفّ في دائرة حول العروسين. وأنت تعلم أنني لا أحب مثل هذه الأمور، ثم نادينا عليهما بشيء نسيته، لكنني أتذكر اليد الجافة لشاب صرخ بصوتٍ عالٍ، واليد الرقيقة لفتاة نرويجية فاتنة ربحت أموالاً طائلة من ارتفاع أسعار الحبوب وانخفاضها، وقد تركت على أناملي رائحة طيبة من أزهار "الأذريون"و"الأفوكادو".

استغرق ذلك كله وقتًا طويلاً، وبدا لي أن "ماري إيبوتسون" نفسها سعيدة بتوجهنا إلى مائدة العشاء أخيرًا.

بدأ "برايزينج" في وصف وليمة العشاء بقوله:

- "الطاهي شابٌ صغير قليل الخبرة من ولاية كيرنتن النمساوية تدرب في طوكيو وسيدني".

إلا أنني قاطعته في الحال لأن نزهتنا في الهواء الطلق جعلتني أتضوَّر جوعًا، ولم أرغب في سماع تقرير تفصيلي عن تسلسل قائمة الطعام. خاصةً لأنني استطعت أن أتصور ما يستطيع طباخ شابٌ قليل الخبرة من كيرنتن، تدرب في طوكيو وسيدني، تقديمه من أطعمة في منتجع صحراوي تونسي، بمناسبة حفل زفاف إنجليزي لا يلعب فيه المال أي دور، أو يلعب فيه الدور الأعظم. حيث تضم قائمة المأكولات الكابوريا النهرية الأمريكية في هلام الشاي الأخضر، وحلوى البقلاوة المصنوعة من عسل زهرة شجر السنط، وفطر ألبا، وكبد الأوز (فواجرا)، ومكسرات الماكداميا من جزيرة تاسمانيا الأسترالية، وشرائح من لحم عجل الواجو المقدمة مع قطع البطاطا الحلوة، وغيرها من المأكولات الدولية. بدا "برايزينج" مصدومًا بعض الشيء إلا أنه انصاع لرغبتي قدر استطاعته.

حيث قال:

- "كما تريد؛ سوف أفوِّت العشاء فقد كان.. بريًّا، هذا أفضل وصف له، مأكولات من جميع أنحاء العالم، أشهى الأطعمة وأفخرها فحسب، كلها مأكولات غير مألوفة ومُعدة بطريقة رائعة، لن أخوض في التفاصيل الآن.. لكنني صديق المطبخ الوطني، وطني بمعنى أقرب إلى كلمة مواطن Citoyen عن كلمة برجوازي.. وخمور؛ أقول لك: خمور، لكنك لا تريد سماع ذلك.

ثم توقف عن الكلام بعد نظرة جانبية فاحصة ناحيتي.

ثم استطرد قائلاً:

- "ما علينا!! جلستُ على ترابيزة مستديرة في آخر قاعة العشاء مع خمسة من الشبان ليسوا من أقرب أصدقائي. الموقع بعيد عن مركز الحدث الذي أقنعتُ نفسي برضائه بطبيعة الحال، فأنا في النهاية غريب، ولا تزال معرفتي بأسرة العريس في أول مراحلها، وهذا المكان له ميزة واضحة، فمن ناحية كنا نجلس بعيدًا عن خشبة المسرح الذي تعلوه موسيقى مختلطة من التانجو المناسب لصالات الرقص بآلات إلكترونية، ما مكنني من التركيز في الحوارات المثيرة مع الشبان. ومن ناحية أخرى كنتُ بعيدًا للغاية عن الحدث عندما صعدت "بيبا" على خشبة المسرح قبل تقديم الحلوى؛ وهي عبارة عن حلويات نصف مثلجة من الفستق والنارنج، المُقدمة مع شراب النبيذ الفرنسي القوي. استجمعت "بيبا"

شجاعتها وصعدت إلى خشبة المسرح، وقرأت أبياتًا شعرية بروعة، لدرجة أنه بعد سطرين أوثلاثة ساد السكون الحضور. شاهدتُ وجوهًا متأثرة بشدة حولي. قرأت "بيبا" الشعر بأسلوب بديع، لدرجة تصورت أنني قادر على سماعها بعينين مغمضتين للأبد، وأستطيع القول إن التصفيق الحادّ الذي ساد بعد عرض "بيبا" أعادني ـ بقوة ـ من بعيد مرةً أخرى".

كان التصفيق الحارّ زائدًا عن الجدّ، لكنه كان كفيلاً بكسر حاجز الصمت المحرج الذي وصفه "برايزينج" بالصمت التأمليّ.

في الحقيقة بدا أداء "بيبا" جيدًا للغاية. كانت جالسة على ترابيزة واحدة مع "سانفورد" والعروسين و"آل إيبوتسون"، وإشبيني العروسين"جيني وروب"؛ الشاب الذي يعمل أيضًا في القسم المالي، والذي عاش معه "مارك" سنوات طويلة قبل أن يحصل هو و"كيلي" على منزل هدية في "بارنيسبيري" بمناسبة عيد ميلادهما الثلاثين.

كانت "جيني" سعيدة بأن الحفل على المسرح يسير بخير بعض الشيء، وأسعدتْ الحضور بقصة طويلة عن المشاكل الفنية لمكان عملها الجديد، وهو المقر الذي أنشئ حديثًا لبنك كبير حاول أن يجد لنفسه مكانًا بجانب العلامات التجارية المعمارية في لندن، فبحث من أجل ذلك عن سمات مميزة في تصميمه مُستقاة من حساب الإحصاء بشكل غير

مُستساغ ومُبالغ فيه، مما أدى إلى نشأة ظواهر رياح دافئة غير مألوفة تمامًا. فقد صنعت الأبواب الدوّارة عند المدخل الرئيس لنفسها حياةً خاصةً في ظروف طقس محددة، على الرغم من أنها تعمل بالمحرك، وبدأت في الدوران أسرع فأسرع. الأمر الذي استلزم الدخول والخروج من البناية من خلال مخارج الطوارئ عند هبوب الرياح الشرقية والضغط المنخفض في الوقت نفسه. تلك المخارج التي تُفضي إلى حارة ضيقة وغير نظيفة. مما اضطرهم في النهاية إلى استبدال الأبواب الدوّارة بأبواب إلكترونية جرّارة. وروت جيني أنه على الرغم من ذلك عاشوا أيامًا لم يتمكنوا فيها من مغادرة البناية إلا بين فترات هبوب الرياح فحسب، لدرجة أن أسرابًا كاملة من موظفي البنك كانت تتجمع في البهو أمام الباب وقت الظهيرة كي يتدافعوا، ويكادوا يدهسون بعضهم حتى الموت للهرب من البناية في اللحظة المناسبة.

يتسبب هطول الأمطار في دخول المياه القذرة من الشارع إلى البهو المصنوع من الرخام الأخضر عند فتح الأبواب الجرّارة مثل الرغوة، فتتناثر المياه على اللوحة الأثرية "Rakelbild" التي رسمها الفنان الألماني "جرهارد ريشتر"، لدرجة أن الأمر تطلب إعادة ترميم هذه الصورة بمبالغ طائلة، ووضع لوح زجاجي عملاق غير عاكس لحمايتها.

بهذه الطريقة وجدت موضوعًا يتجاوز الفروق الطبقية والعمرية. وكان لدى كل جالس على الترابيزة قصة ليرويها عن عدم وظيفية الفن المعماري الحديث ماعدا "ماري إيبوتسون" التي لم تفكر في الفن المعماري على الإطلاق، حتى إن زوجها قد انفكت عقدة لسانه وتحدث عن المراحيض العامة البشعة في الاستاد الجديد لفريق كرة القدم الذي يشجعه.

وفي ظل هذا الجو المرح أعطت "بيبا" لقائد الفرقة الموسيقية إشارة، وصعدت خشبة المسرح بتركيز، واثقة من نفسها، منتشية بفعل الخمر ونتيجة كلمات "برايزينج" المشجعة التي ألقاها على مسامعها؛ فوقفت أمام الميكرفون وانتظرت بكل هدوء توقف الحضور عن الحديث قبل أن تبدأ في قراءة كلمتها بصوت ثابت، ودون النظر في الورقة المكتوبة بخط اليد التي تمسك بها في يدها اليسرى. وعلى الفور جذبت انتباه الحضور، وارتفعت أبصارهم إليها مثل الجِرَاء الناظرة إلى عظمة لذيذة، أو كالمتدينين الذين ينهلون كلمات الحكمة من على شفاه الواعظ.

أحالت "بيبا" ذلك التأثير إلى قوة اللغة الأدبية، لأنها لم تعرف أن الشباب الصغير على أهبة الاستعداد للإنصات لأشخاص أكثر ثقة

بأنفسهم، ولديهم ما يقولونه، مثل رؤساء البنوك الذين أعلنوا الأهداف الربحية وقادة الفرق الطامحين للمبالغ النقدية، وكبار المستثمرين الذين يضعون سماعات الرأس ويلقون بوصفات النجاح إلى الجمهور، والأساتذة الذين يشرحون النماذج الحسابية، ومستشاري الشركات الذين يمدحون الاستراتيجيات الجديدة، ومدربي الموارد البشرية الذين يقدمون شعارات التحمل ونصائح عن اللياقة الذهنية والبدنية. لا يسترعي اهتمامهم بـ: من أو ماذا، بل يتعلق الأمر بموقف محدد ممن يتحدث، ويساعد في ذلك الثقة بالنفس، والحضور، وشدة الصوت، وابتسامة المنتصر، وملبسه الجيد. ثم يصبح الجميع على استعداد للإنصات والتصفيق بحرارة، حتى ولو قُدِّمت لهم قصيدة لأحد المتسولين البوذيين المسنين أو لخبير بيئي.

لكن "بيبا" فقدت السيطرة، بأن ضحت بثقتها بالنفس في طرفة عين، ومن الصعب أن نقول ما سبب ذلك. ربما السبب "سانفورد"، وربما لحظة من تلك اللحظات التي ننظر فيها لزميل مقرب من برج مراقبة غير معروف ليبدو غريبًا تمامًا للحظة. الرقبة النحيلة وتفاحة آدم المرتعشة، ثم يصبح المرء غريبًا فجأة؛ حتى لنفسه، ولو لجزء من الثانية.

وسرعان ما اعتلت الوجوه مشاعر اضطراب مزعجة، وسادت القاعة حركة واضحة بالقدر الكافي لتبدو مثل الموجات، كي تدركها "بيبا" دافعة بها إلى دوامة انحدار لن تتخلص منها إلا بعد عامين، عندما تلقي ببصرها لأسفل من ارتفاع مدخل المدرسة الثانوية الإنجليزية التي تُمَثِّل مكان عملها الجديد ـ إلى المعلم المتدرب الشابّ، لتراه مستندًا على سيارتها ماركة بيريوس، واضعًا يديه في جيوب السويتر باسترخاء، لتفهم في هذه اللحظة أنها ليست في حاجة لهذا الحب كي تعيش، لكنها ستعينه في المدرسة. دوامة انحدار رافق دورانها الأول دوران تغيير ألوان الإضاءة التي تضيئها روح إلكترونية شريرة أو موظف في الفندق بنيّة طيبة، هذا الضوء الدافئ الذي جعل شعرها الرمادي القصير ظاهرًا، ليترك شعاعًا ذهبيًّا على وجنتيها، ويتحول لزرقة باهتة تطفئ كل بريق. دوامة انحدار ازدادت سرعتها عندما تجمدت "بيبا" في مكانها وهي تبحث عن الكلمات المناسبة بين العبارات المكتوبة على الورقة بالحبر الملكي. عندها فقدت السطور المكتوبة وضوحها، تلك التي كتبتها المعلمة بخطوط مائلة منظمة؛ حتى عندما أبعدت الورقة عنها حتى آخر ذراعها. دوامة انحدار لم تتوقف سرعتها عندما قفز "كينيث إيبوتسون" مسرعًا لمساعدتها، معطيًا لها نظارته التي اشتراها من صيدلية على ناصية شارع في أحد ضواحي ليفربول، كي يعطي لسرعة الدوران دفعة إضافية.

أما "بيبا" فقد قرأت أبياتًا شعرية بخصر متصلب، وهي شاحبة في اللون الأزرق، وصارت عجوزًا بعد ارتداء نظارة "كينيث إيبوتسون". ألقت الشِّعر بإيقاع أسرع، لكن بدت القصيدة وكأنها لن تنتهي، وساد انزعاج شديد.

كما لو أنها تجردت من إيمانها بنفسها. ولا يمكن أن يبدو ظهور تمدد جلدها وبطنها المترهل، وحياؤها المتناثر على الشعر الأبيض، أكثر خزيًا من موقفها في تلك اللحظة. كانت سيادتها المسلوبة مشهدًا فاضحًا، وتحولت بفعل الضوء الأزرق الباهت إلى وحش مخيف مزعج، أُلقِي به إلى حفلة الثقة بالنفس، مهددًا بتحويلها إلى مصدر الفزع في الحفل بقدر هائل.

ألقت "بيبا" الأمر خلف ظهرها. أكملت القصيدة بيتًا تلو الآخر، وكلمة وراء الأخرى. ونزلت مسرعةً من على خشبة المسرح بين التصفيق الذي وقع عليها مثل الجَلد بالسوط، الجَلد الذي تستحقه لاقترافها خطيئة عدم الثقة بالنفس، وأن يشاهدها ضيوف حفل الزفاف في هذا المشهد.

ربما تمكن "برايزينج" من رؤية ذلك من ترابيزته البعيدة، وربما أراد أن يرى ما يجب أن يراه، وليس ما أراد رؤيته. لكنه اتفق بكل تأكيد على ما وصفه فيما بعد بهتاف حار. لم تفشل قدرته على المراقبة من جميع النواحي. حيث لاحظ ملاحظة صائبة للغاية بأن الحفل لا يختلف

اختلافًا جوهريًّا عن حفلات الزفاف الأخرى التي حلّ بها ضيفًا: كثرة الحوارات والشرب والرقص. وما استرعى انتباه "برايزينج" هو أن كل ما كان يحدث على حافة الإفراط كان في غمار أجواء قليلة الوضوح، على الرغم من حدوثه بمدى محدد. شرب الناس الخمور حتى الثمالة كما لو أن ذلك أمر واجب الحدوث، متساهلين بشكل كبير في غابة النخيل، كما لو أنهم يعملون وفقًا لنموذج محدد، متبادلين القبلات، مثلما لاحظ "برايزينج" بامتعاض وكأن ذلك أمر عارض. في الوقت نفسه رقصوا بإفراط في الشهوة واللامبالاة، ضاحكين باقتضاب وسخرية. بعد فترة وجيزة رافق "برايزينج" مجموعة من الرجال على البار المطل على حوض السباحة، وأقنع نفسه بتناول شراب الفودكا البارد المركّز، كأسًا تلو الأخرى، والذي قدَّمه "كويكي" المتحدث الرئيس.

مارس "سانفورد" دراسات إثنولوجية على غرار طريقة "برونيسلوف مالينوفيسكي" المسماة "مراقبة المشاركين" بأن قَدَّم نوعًا من الرقص القَبَلِيّ حول "جيني". لاحظ "برايزينج" كم كانت فاتنة، وممشوقة للغاية، ومخلوقة من مادة كاملة غريبة. وسَجَّلَ ذلك بوصفه أمرًا مدهشًا أكثر من كونه شائقًا.

سرعان ما اختفت "بيبا" ومعها "آل إيبوتسون". حاول "برايزينج" أن يؤثر في بعض الشباب بأن يعرض قصة "سانفورد" عن الشواء البربري للجِمَال على خير وجه. خاطبته امرأتان باسم المستكشف الإسكتلندي "مِونجو بارك". لم يقدر أن يفهم ذلك وانهمك في حديث مع "كويكي" الذي أمسك بكتف شاب صغير أحمر الوجه كي لا يتأرجح. ابتسم الشاب الذي اعتبر دوره كمسند نوعًا من التميُّز. لم يقدر "برايزينج" على فهم "كويكي" إلا على أنه ظاهرة غريبة مبهمة. فهو يتحدث بلسان ثقيل متعثر مع "برايزينج" الذي وقف مستندًا بظهره على الجدار، وقد غطاه رذاذ البصق الخفيف.

بيد أن كلمات مثل: أمّ قصر والناصرية والرميثة وأمّ الشوالي، كان ينطقها بوضوح، حيث كان ينطقها مثل الأسماء الروحانية، كل الأماكن التي خدم بها في العراق - في البداية كجزء من ائتلاف القوات الخاصة البريطانية ثم عمل موظفًا في شركة أمن مدنية - وصفها صراحةً بمجموعة متعفنة من المرتزقة، لأنه حصل على راتب "أفضل بكثير"(betterway) كما أكد مرارًا وتكرارًا. أطلق "كويكي" بعض الأصوات الحربية التي تمنى "برايزينج" ألا تكون حقيقية أو على الأقل مبالغ فيها جدًّا. ومِنْ عمل المرتزقة إلى

العمل في قاعة التداولات المالية بالبنك؛ لم يبدُ ذلك طريقًا طويلاً إذا أردنا تصديق رواية "كويكي" عندما ضاق ذرعًا بالرمال الحقيرة ومرتدي الصنادل الملعونين، حسب قوله.

ألحَّ الشاب ذو الوجه الأحمر على "برايزينج" بقوله:

- "سَلْه عن اسمه، سَلْه لماذا نسميه "كويكي"".

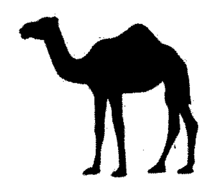
فعل "برايزينج" ما طُلب منه، فما كان من "كويكي" إلا أن وضع يده اليمنى أمام وجهه، وثنى إصبع السبابة، كما لو أنه يقدح زناد المسدس. تكلم "كويكي" بصوتٍ عالٍ غير مفهوم قائلاً:

- لذا أرادوا كل شيء، الجيش والشركة والبنك.

ضحك ضحكة مدوية، وفي الخلفية كانت "جيني" الفاتنة ترقص. هبت الرياح فوق "برايزينج" عند قمم النخيل، عندما تَوَجَّه إلى خيمته مترنحًا. انسابت ضحكات وموسيقى إلى أذنه حينما استلقى على فراشه وهو يرتدي سرواله الداخلي وجوربًا. وضع بدلته القطنية المخططة مُكَوَّمةً فوق كليم البربر. رفع "برايزينج" ذراعه مُوَجِّهًا مسدسًا وهميًّا صوب النقطة التي تجمعت عندها أعمدة الخيمة، ثم ثنى أصبع السبابة ووضع يده فوق صدره حيث آلمه المريء، وغاص في نوم عميق بلا أحلام.



6



لما كان "برايزينج" غارقًا في النوم، كانت إنجلترا قد انهارت. رغم تحسن الوضع من قبل، إلا أن الأمور ساءت مرةً أخرى في المساء. إذ انهارت تمامًا سوق ما بين البنوك في الإمبراطورية. وبينما غرقت لندن في ليل مظلِم، خسرت الدول - التي كانت أسواقها مفتوحة - احتياطياتها من الجنيه الإسترليني في ظروف شديدة السوء، كما ظل مجلس الوزراء منعقدًا حتى الساعات الأولى من الصباح في شارع (داوننج ستريت)، حيث راقب المجلس العملة أثناء هبوطها التاريخي؛ الذي تحول فجأة إلى انهيار مع افتتاح بورصة لندن في تمام التاسعة بتوقيت لندن، وكان من الأصح أن يُوقَف التداول فيها ذلك اليوم. ولم يتم التوَصُّل إلى اتفاق بشأن من يتحمَّل المسئولية عن تلك الفوضى. ولفترة طويلة سعت الحكومة للحؤول دون أن يشعر أصدقاؤها في الاتحاد الأوروبي وعبر المحيط الأطلنطي

بالقلق. الأمر الذي كان بمثابة مماطلة حملت عواقب وخيمة؛ حيث إن البرامج التي كانت مسئولة أو حتى غير مسئولة عن جزء كبير من الصفقات، بدت غير مؤهلة لمثل هذا الانهيار الذي لم يكن أحدٌ حتى ذلك الوقت يتوقع إمكانية حدوثه، كما ضارب بعضها ضد البعض في موجات ردود الأفعال بأقصى الدرجات، مما أطاح بالمليارات في عدة دقائق، وذلك قبل أن يتمكن أي شخص من اتخاذ أي إجراء. وفي تمام التاسعة وخمس دقائق بتوقيت لندن، أُوقِف التداول. وفي الوقت نفسه، أعلن وزير المالية البريطاني، كأول المتحدثين، عما كان بالفعل قد أصبح واضحًا، وهو أن بلاده لم تعد في ظل هذه الظروف ولفترة طويلة في موقف يسمح لها بالوفاء بديونها الهائلة.

"مارك" و"كيلي"، اللذان بلغ الوقت عندهما العاشرة وخمس دقائق آنذاك، كانا نائمين في خيمتهما البدوية، في الوقت الذي كانت تكاليف العرس، التي تعيّن عليهما سدادها بالدينار التونسي، قد فاقت لتوِّها قيمة عدد من المنازل التي يعيشان فيها في لندن بالجنيه الإسترليني، والتي لا يزال ثمانون بالمئة منها مملوكًا لأحد البنوك، لا سيما أحد البنوك الذي أعلن وكلاؤه قبل قليل عن تَعَثُّره، كما أرسلوا خطابًا بريديًا إلى موظفيه يقترحون فيه عليهم أن يحضروا اليوم ومعهم صناديق كرتونية.

عندما وقف رئيس الوزراء الإنجليزي أمام الصحافة مُعْلِنًا إفلاس بلاده، كانت "سعيدة" تقف على قدميها منذ ساعات، وقد أعادت مع موظفيها الذين أجهدهم السهر ترتيب وتنظيم المنتجع؛ حيث جمعوا الزجاجات والأكواب المُحطَّمة من أحواض الزهور، وجرفوا الأغراض المهشمة في إحدى العربات المدفوعة. كما أجبرت "سعيدة" رشيدًا على النزول إلى حمَّام السباحة لالتقاط أحد كراسي الشواطئ وإيقاظ شقيق "كيلي" الذي كان يميل رأسه للخلف في عوامته الصفراء ويطفو على الماء.

في الوقت نفسه، وبينما عقد وزراء مالية الدول الأوروبية مؤتمرًا هاتفيًّا وسط حالة من الذعر والفوضى، وجدت "سعيدة" أخيرًا الوقت لمراجعة استعدادات مائدة الإفطار والعودة لمكتبها بكوب من القهوة، وكما كانت عادتها، الاطلاع على أخبار العالم على موقع "تريبون دو جينيف" (tribune de Genève) وترجو أن يكون بين أنباء السياسة المحلية لمدينة جنيف ذِكرٌ لمستشار المدينة الشيوعي الذي كان يربطها به حبٌّ من جانب واحد لم يُقدر له النجاح، وذلك منذ أيام دراستها في مدرسة التعليم الفندقي.

لم يأت هذا الخبر في ذلك اليوم. وبعد لحظة قصيرة من الذهول وإعادة فحص أهم الحقائق على صفحات البي بي سي والسي إن إن، أمسكت بآلة حاسبة وأجرت حسبةً سريعةً لحفل الزفاف، بما في ذلك تكاليف المبيت لاثنين وسبعين ضيفًا، ووجدت أن الناتج التقريبي هو

ستمائة ألف دينار، وهو المبلغ الذي كان قبل ساعات يساوي - وفقًا لِحِسبةٍ سريعة في عقلها - ما قيمته ربع مليون جنيه إسترليني. مدت "سعيدة" يدها نحو التليفون، وأعطت توجيهاتها للمحاسب في مكتب أبيها في تونس بسحب مبلغ قدره مليون ومئتان وخمسون ألف جنيه إسترليني من كل بطاقة ائتمان خاصة بالمتزوجين الجُدُد، وهو أيضًا مبلغ، كما كان يبدو لها، كان بالكاد يغطيه الاعتماد الموجود على بطاقات الائتمان السوداء اللامعة الخاصة بكليهما، ولكنها كانت تأمل أن تتمكن على الأقل من استنفاد الاعتماد الموجود على البطاقات. أسرعت بعدها "سعيدة" إلى المطبخ، ودعت الموظفين إلى إيقاف استعدادات الإفطار وإخلاء المائدة إلا من سلة من الخبز وطبق من الحمص.

لم تكن مفاجأة بالنسبة إليها عندما جاءت الأنباء من تونس بأن بطاقتَيْ الائتمان تم تجميدهما بالفعل، كما أنها لم تتمكن أيضًا من السحب من بطاقات الائتمان الخاصة بالضيوف الآخرين الذين كانوا قد سَلَّموا بطاقاتهم على حلقات البار، وتركوا عندئذٍ أرقامها. وبالتالي، وكما يبدو، فإن كل بطاقات الائتمان الصادرة عن البنوك الإنجليزية تم تجميدها، ومن المتوقع أيضًا أن تكون عمليات تداول الأموال في العالم كله قد تعطلت.

أما "سليم مالوخ"، فإنه امتنع عن الحديث حتى مع ابنته، وذلك وفق ما بيَّنت لها سكرتيرة أبيها. لعنت "سعيدة" تلك الشقة الموجودة في

منطقة حديثة البناء من مناطق الطبقة المتوسطة على أطراف مدينة تونس، والتي ليست لها في الحقيقة أي معرفة بها، وقد توقعت أن يكون والدها موجودًا فيها. ويبدو أنها ستعتمد على نفسها خلال الساعات المقبلة. لقد حان الوقت كي تتولى إدارة الموقف.

استيقظ "سانفورد" على رنين عنيف لأحد الأجراس الصغيرة، لم يعرف في البداية أين هو، ولاحظ غياب زوجته.احتاج فترة طويلة لتخليص قدميه النحيفتين من ملاءة السرير الملفوفة، وبحث مغمغمًا عن معطف الحمَّام الخاص به. كانت "سعيدة" تمسك بيدها مطرقة الجرس النحاسي الذي تستدعي به الموظفين، وهو أحد المساوئ الكثيرة الناتجة عن بناء المنتجع على أسلوب الخِيَم، إذ لا يمكن الطرق على شريط من القماش كما هو الحال مع الأبواب، وحاولت جاهدةً التقاط بعض إشارات حياة بأذنيها، وبينما هي تتسمع خطوات الإنجليزي المتثاقلة، سوَّت بنطلون بدلتها، كما تفحَّصت - من باب الاطمئنان - ثنايا سترتها. هكذا أصبح واجبًا إخبار والد العريس، الذي اختارته في هذا الموقف الحساس للحديث معه، ليس فقط عن إعلان رئيس وزراء بلاده إفلاس الدولة، وإنما أيضًا إخباره بأن وَلَدَه، الذي أصبح مدينًا لهبوط الجنيه الإسترليني، قد تراكمت عليه فاتورة للفندق بقيمة كذا وكذا. وهنا ذكرت رقمًا كان خياليًّا تمامًا بالنسبة لـ"سانفورد"، على الرغم من أنه اعتاد - كما اعتاد الآخرون - خلال الأعوام الثلاثة الماضية على الأرقام الكبيرة، وهذه الفاتورة قد يكون

سدادها مؤلمًا للغاية. وللأسف كان عليها أيضًا واجب إخباره بأن كل بطاقات الائتمان الصادرة عن البنوك الإنجليزية أُوقِفت، وربما أيضًا بطاقات الائتمان الخاصة به، وأنه في حال امتلاكه هو أو ابنه حسابًا بنكيًّا في مكان ما بإحدى العملات الأجنبية فإن ذلك قد يكون مفيدًا جدًّا للتخفيف من وقع الأوضاع السيئة التي لا يمكن تفاديها، وأكدت أنها تشعر حقًّا بالأسف لكل ذلك.

كان "سانفورد" يرتدي معطف حمّام وَبَرِيًّا فضفاضًا للغاية ونعلًا فيروزي اللون مصنوعًا من جلد الماعز، حينما اتخذ في نفسه بسرعة وضعًا قتاليًّا. لطالما عرف دائمًا أن الأمر سيبلغ هذا الحد، لذا كان مستعدًّا. كان يقول ذلك دائمًا، لم يفاجئه الأمر، ومع ذلك فاجأته بعدها النتائج المُباشرة، وبما أن اهتمام "سعيدة" المادي لم يعد يسمح لها الآن بالتخفي وراء ستار كرم الضيافة المزيَّن، فقد شرحت له الموقِف بمنتهى الوضوح.

ثم وضعته "سعيدة" أمام الاختيار بين أمرين؛ فإما أن يتمكنوا بمجهودات متضافرة من تسوية الفاتورة بسرعة وبشكل أكيد؛ وقد تتوافر إمكانية جيدة على سبيل المثال للسداد بالفرنك السويسري على أحد حسابات عائلة "مالوخ" في جنيف، عندئذ سيكون هناك استعداد للحديث عن خصم هائل، وإما أن تُغادر الصُّحبة برمّتها المُنتجع؛ في موعِدٍ أقصاه الثانية بعد الظهر، وتعيَّن عليها أن تُصِرّ على ذلك. كما أوضحت "سعيدة"

أن هناك إفطارًا بسيطًا أُعِدّ بالفعل. بخلاف ذلك فإنه أصبح من واجبهم أن يحرصوا من الآن وحتى انتهاء هذا الموقف المؤسِف ألا تكون هناك تكاليف أخرى، فوسائل الراحة الخاصة بالمنتجع وملاعب التنس وحمَّامات السباحة، وبالطبع كل صالات الطعام، لم تَعُد بذلك متاحةً للاستخدام، كما طلبت كذلك أن يقتصر استخدام الطاقة والاستحمام على الحد الأدنى للضرورة فقط.

بدأ "سانفورد" بالفعل يدرك أنه لم يكن مستعدًّا جيدًا لكل ما حدث الآن، وأن إعلانه أنه كان يقول ذلك دائمًا لم يكن ليُشَكِّل فارقًا الآن. ومع ذلك كانت تلك هي الكلمات التي أفزع بها زوجته في المكان المُفضل لها، حيث كانت تجلس منذ الفجر في أتعس حالاتها، ولم تستطع التركيز في كتابها على الإطلاق، وذلك على غير عادتها، كما لم يساعدها منظر شروق الشمس الخلاب ودرجات الحرارة التي ترتفع تدريجيًّا على تحسين مزاجها.

استقبلت "بيبا" الأنباء السيئة في استسلام تامّ، وذكرت أنها رأت أن ذلك سيحدث. لم تكن على يقين إذا ما كان العالم سيتغير بشكل خطير، وإذا ما كانت بعض الأشياء، كالاقتباس من الأشعار، سوف تستعيد أهميتها مرةً أخرى. ورفضت "بيبا" أن تصطحب زوجها أثناء سيره لاطلاع العروسين بانهيارهما والخطر القائم بفقدانهما لوظائفهما. كان مكانها في تلك اللحظة هنا تحديدًا، تحت شمس أفريقيا القاسية الحارقة،

هنا ستبقى، فعليها أن تستوضح بعض الأمور، بعض الأمور التي لا علاقة لها على الإطلاق بالأسواق وانخفاض سعر الصرف. في موقف آخر، كان يمكن أن يتعجب "سانفورد" لتلك النبرة الشديدة غير المعتادة. ولذلك لم يبق أمامه سوى أن يجرّ قدميه ليخرج وهو يرتدي نعلًا من نعال الرحلات غير حليق الذقن يُشبه أحد آلهة الرومان، وأن يشرح لابنه بعض أمور لم يستطع هو نفسه حتى الآن أن يعرف مداها.

قال "برايزينج":

- "كنت أقف أمام خيمتي تمامًا، مرتديًا ملابس السباحة حاملاً تحت ذراعي منشفةً، ومستعدًّا. كانت أمامي بعض الطرقات لأسلكها كي أصل إلى طعام الإفطار. كان ذلك عندما مرَّ عليَّ "سانفورد" مُحدِّدًا هدفه في طريقه إلى خيمة زفاف "مارك وكيلي"".

وصاح فيَّ من فوق الأكتاف:

- "حوض السباحة مُغلق، ولا تستحم لفترة طويلة".

لم يكن يعلم أن الترتيبات الجديدة التي وضعتها "سعيدة"، والتي لم يبلغني بعد منها أي شيء على الإطلاق حتى ذلك الوقت، لم تكن تنطبق عليَّ. ظننت أن حوض السباحة قد يكون غير صالح للاستخدام بعد الاحتفال الضخم. ارتديت ملابسي وذهبت لتناول طعام الإفطار، لأجد

نفسي مرةً أخرى في موقف غير مريح على الإطلاق. فعلى غير المتوقع تمامًا لم أجد في غرفة الطعام مائدة الإفطار الفخمة المعتادة. وبدلاً من سلات الفاكهة المُبالغ فيها وأباريق العصائر الطازجة، وشرائح الخبز البارد مع الجُبن الفرنسي واللحم البقري المشوي ولحم الخنزير المطهي على الطريقة الإسبانية، والأرفف المليئة بالحلوى والأرفف المُحَمَّلة بالخبز الفرنسي المُغلَّف بالمناديل البيضاء؛ كان على المائدة الطويلة سلة بها كعك وطبق من عجينة الحمص وبعض أباريق حِفظ القهوة الساخنة. وكان هناك جرسون وحيد يرفع آخر الأطباق وأطقم السفرة التي لم تُستخدم حتى يزيل بحركة كبيرة الفُرُش الدمشقية من على الموائد.

لم تُغفِل "سعيدة"، رغم أنه كان لديها أمور أهم لتُنجزها وتعليمات لتعطيها، أن تُجَهِّز لي في أحد جوانب غرفة الطعام مائدةً صغيرةً كانت على وشك الانهيار من ثِقَل الطعام. ثم أكَّد لي "برايزينج":

- "رغم أنني لم يكن لديَّ أية معرفة بالوضع الدولي الذي تَغَيَّر، والتأثيرات المباشرة على واحتنا الصغيرة، وأنني لم أستطع فهم معنى تلك الترتيبات الغريبة، إلا أنني استشعرت رفضًا واضحًا لجلوسي على تلك المائدة، وقد انتويتُ أن أبدأ في العودة؛ مراعاةً للغير، عندما اكتشفني الجرسون واصطحبني، حاملاً جبلاً من الفُرُش الدمشقية على ذراعه، إلى المائدة المخصصة لي.

ظهرت "سعيدة" سريعًا حاملةً لي القهوة بالحليب والأخبار السيئة وبعض مطبوعات لإصدارات إلكترونية لجريدة (لو فيجارو)، ولم يكن الوصول إلى صفحات شبكة الإنترنت الخاصة بجريدة (التايمز) وجريدة (فاينانشيال تايمز) ممكنًا، الأمر الذي تسبب في مزيد من الشعور بالقلق. بالطبع لا أستطيع الادعاء بأنني فوجئت بشكل كبير. كنتُ أعلم طوال الوقت بأن ذلك سيحدث يومًا ما، ربما ليس بهذه السرعة، ليس بين يوم وليلة، ولكنني كنت أعرف أنها في النهاية مسألة وقت. كان ذلك واضحًا بالنسبة لي منذ وقت طويل.

أخبرتني "سعيدة" بأنها رتبت بالفعل مسألة انتقالي للمطار، حيث ينتظرني بالتأكيد الكثير من القرارات في بلادي. وقالت بأنه لم يكن معلومًا على وجه اليقين متى تصل إحدى السيارات المناسبة. بعدها تركتني وحدي مع إفطاري، الذي لم يَطِب لي تمامًا، وأنت ستفهم ذلك بالتأكيد.

في تلك الأثناء، بدأت قاعة الطعام تَعُج ببطء بالشباب الغاضب، كما انتشرت الأخبار المُدمِّرة سريعًا، والتي رأى البعض إخفاءها. أخذ النزلاء يقرأون لبعضهم الأخبار على شاشات التليفونات الصغيرة، ويُعَلِّقون على ذلك بصيحات غير مُصدِّقة، ويطلبون جرائدَ يومية حديثة واتصالاً منتظمًا بشبكة الإنترنت، كما بدأوا يتشاجرون مع العُمَّال بصوتٍ عالٍ بسبب طعام الإفطار التقشفي، ولكن ليس قبل أن يضمنوا لأنفسهم حظًّا

من الخبز وملعقةً من الحمّص، حيث أدرك الجميع بداخلهم أن عصرًا جديدًا بدأ. انسحبتُ دون أن ألفت النظر بمجرد أن سَمَحَتْ بذلك اللياقة. ومن بعدي، منع جرسونان أحد خريجي جامعة (ترينيتي كولدج) وأحد المحللين الاقتصاديين للمَحافِظ الوقائية من فحص طبق لحم الخنزير الفاخر "التشاركوتري" الذي تركته خلفي. وكنت قد خشيت أن يتحول الوضع إلى مشهد غير سارّ".

بذلك كان ما قصَّه عليَّ "برايزينج" هنا تنويعة ما من حكاية: "أين كنت عندما أعلنت إنجلترا إفلاسها"، وهو النوع الذي حلَّ محل حكاية: "ماذا كنت تفعل يوم الحادي عشر من سبتمبر"، الأمر الذي يدفعك دائمًا لتذكُّر تلك اللحظة التيمن المتوقع أن يتابعها المئات منّا، والتي رأيتُ فيها لأول مرة على شاشة التليفزيون الطائرة ترتطم بأحد الأبراج، أو تلك التي رأيت فيها رئيس الوزراء ذا الوجه شديد البياض، مرتديًا الكرافتة الحريرية ذات اللون الأزرق، والذي مازلت أراه في ذاكرتي حتى يومنا هذا في غاية التفاؤل والاستهتار، حين بدأ خطابه بقوله: "في عام 1345، عندما قال الملك إدوارد الثالث لصيارفته الفلورنسيين ..." وهو أحد المشاهد التصويرية النادرة جدًّا، والتي حُفِرَت مع ذلك في الذاكرة الجَمْعِيَّة.

أمام تليفزيون صغير في قاعة الاجتماعات الخاصة بإحدى وكالات الشحن والتفريغ في مدينة (بايرويت) الألمانية، التفَّ حولها جميع موظفي

الوكالة؛ وأمام شاشة مسطحة في كافيتريا جامعة "لوتسرن". كانت تلك إجاباتيَّ الاثنتين. في البيت، داخل المطبخ، أمام تليفزيون مُدَبِّرة المنزل، ارتطمت الطائرات بالأبراج، ورئيس الوزراء، هكذا كانت إجابات "برايزينج" وهو في خيمته البدوية الباردة بسبب انخفاض حرارة المكيف، وفيها أيضًا استطرد في قص حكايتهكما يلي:

- "انسحبتُ حتى أهرب من الأجواء المضطربة في قاعة تناول الإفطار، وكذلك حتى أُكَوِّن نظرةً شاملةً عن الوضع عبر القنوات الكثيرة في التليفزيون المتصل بالأقمار الاصطناعية. أقابل في كل مكان وجوهًا منفعلة، أنباء عاجلة يقرؤها المذيعون، مُعَلِّقون وُضِعت مستحضرات التجميل على وجوههم بشكل مُبتذل، خبراء غارقون في عرقهم. كان الحديث عن حريق واسع الانتشار، أو وباء، فكلاهما كما تعرف، وقع بعد ذلك في حدود ضيقة جدًّا، عندما استُحضِرَ ذلك اليوم في استديوهات التليفزيون وعلى الصفحات الخاصة في الصحف العالمية.

بعد فترة قصيرة، سَئِمتُ تلك المفردات. وقد تبارى الخبراء في بيان عدم وجود بدائل، وفي التأكيد على حتمية الإجراءات التي اقترحوا الأخذ بها. كما راح المبشرون يتنبأون - بالتناوب - بحريق عالمي كُلِّي أو مجرد عملية تطهير واسعة الانتشار. وأعلن الساسة، كلٌّ وفقًا لانتمائه، أن الرأسمالية والليبرالية الجديدة والليبرالية المنتظمة واقتصاد السوق في حد

ذاته. فقط سوق المال، والنظام الاشتراكي، أو كذلك النظام الديمقراطي أيضًا – ما هي إلا أنظمة فاشلة. في النهاية، توقفتُ عند إحدى القنوات الإخبارية التي تبُثُّ، كما بدا لي، شكلًا ضروريًّا من أشكال الثرثرة العامة، يحمل العنوان (*No Comment*) أي لا تعليق، وهو برنامج يتكوَّن فقط من منظر عامّ شامل وحيد ينقل الحركة في أحد التقاطعات النشطة في مدينة لندن. على الجانب الأيسر من الصورة، شمخ إلى السماء بناءٌ له لمعان زجاجي أخضر، ذلك البناء الذي يفرز- في حركة تشنجية غير مفهومة وكأنه يُعاني من سُعال معماري على فترات غير منتظمة - جماعات كبيرة من الشباب الذين يندفعون إلى الخارج تحت المطر، يقاومون هبوب الرياح بشدة، والذين على وشك أن يدهس بعضهم بعضًا، يحملون صناديق من الورق المقوى بها إطارات الصور، كما يحملون جوائز رياضة التجديف وأوعية الزرع، يندفعون إلى أيدي مجموعة من الغاضبين الذين يُلوِّحون بالمظلات واللافتات التي كتبوها بأنفسهم، متهمين بوضوح هذه المجموعة التي يُرثى لها بالمسئولية عن تلك المأساة.

"برايزينج"، الذي كان على غير العادة، مُجهدًا من الليلة الماضية، غرق مرة أخرى في النومأ على ذلك المشهد العجيب، والذي كان غريبًا عنه بكل المقاييس، ولذلك لم يكن في وضع يسمح له بإعطاء معلومات أكثر عن تطورات الوضع في المنتجع.

عقد رواد المنتجع اجتماع أزمات في قاعة تناول الطعام، حيث استعاد "سانفورد" دوره القيادي سريعًا وبشكل طبيعي، لأن أغلب الحاضرين درسوا في أفضل جامعات العالم قبل أن يطأوا مسرح الأحداث في المدينة. والآن وقد سقط الستار، كان بديهيًّا أن يتذكروا تلك السنين التي قضوها في الدراسة بالجامعات، فاختاروا صاحب أعلى الدرجات الأكاديمية بينهم ليكون رئيسًا. انتهز "سانفورد" الفرصة وحوَّل قاعة الطعام إلى قاعة استماع على الفور، وألقى محاضرة عن الخيارات الممكن العمل بها، والتي دارت بشكل أساسي حول الخيارين اللذين وضعتهما "سعيدة" أمامهم، واللذين نقلهما "سانفورد" إلى الجمع بشكل لا يُساء فهمه وأقل جفافًا بكثير. بعدها هبت عاصفة من الغضب، وكان الفضل يرجع فقط لندائه البليغ للالتزام بالهدوء والحكمة. وبرغم ذلك فإنه لا يجب التغاضي عن أن كون أغلب الحاضرين كانوا يعانون من آلام الرأس قد لعِبَ دورًا في أنه تم تجنب العاصفة التي كان مُقترحًا تنظيمها في المطبخ، لإعطاء إشارة أولية بأنه لا يمكن التعامل مع النزلاء بهذا الشكل. وبشكل كارثي؛ كان من نتائج إنهاء هذا الحِرَاك الذي خلق حالةً من التضافر، أن دعوات "سانفورد"، للاتحاد والتضامن في هذه الساعات العصيبة لم تجد صدًى لها. وتفرق الجمعُ عند ورود رسائل الإقالة الأولى على التليفونات، إلى مجموعات صغيرة حاولت - بأشكال وطُرُقٍ متباينة جدًّا - أن تُجد لها وسيلةً للتعامل مع انهيار عالمها. أما "ويلي" و"كويكي"، اللذان يملك كلاهما حسًّا لا يُخطئ

بالحدود الاجتماعية، فإنهما أدركا سريعًا أن تلك الحدود سقطت الآن، وكوَّنا شراكةً كارثية غير متوافقة. حيث اتفقا فيما بينهما على ضرورة التعامل مع الأمر بهدوء شديد، لدرجة أنهما فكَّرا في الاستلقاء بجانب حمَّام السباحة، لمقاومة آثار الليلة الماضية ببعض كئوس البيرة ثم بقفزة في الماء البارد. لاحقًا.. نعم لاحقًا، عندما يصفو ذهناهما يمكن أن يبدآ بالتفكير. وقد ضرب"ويلي" و"كويكي" بتحذيرات "سانفورد" أن "سعيدة" تمنع تمامًا استخدام حمَّام السباحة، عرض الحائط. بل وانضمت إليهما مجموعة من ثلاثين رجلًا. وفي الحقيقة، لم يكن بإمكان "سعيدة" إلا القليل لتنفيذ منع استخدام حمَّام السباحة. فرشيد الذي لم يكن مُسَلَّحًا بأكثر من شبكة صيد ومُحاطًا بكلبته الوديعة وجِرَائها الخرقاء، وكانت عنده تعليمات واضحة بمنع أي شخص، باستثناء "برايزينج"، من الاستحمام واستخدام كراسي التَّشمُّس، كان قد تجنَّب بحكمةٍ الاحتكاك المُباشر بالمجموعة التي كانت تريد استخدام حمَّام السباحة، نظرًا لقوتها التي كانت تفوقه بكثير وانسحب بعد مُشادة كلامية قصيرة دارت بطول حمَّام السباحة المتلألِئ في ضوء الشمس، استخدم فيها "كويكي" لغة الشجار العربية المعروفة في البصرة وأم القصر، مُتجهًا إلى بُستان النخيل المُجاور لحمَّام السباحة، حيث نالت منه مجموعة الرجال بعض قذائف البلح الأخضر، والتي لم يُصِبْ جميعها سوى الفراغ.

في تلك الأثناء، بدأت "سعيدة"- بنشاط مُتَّقِد وأنظار مُوَجَّهة إلى المُستقبل - في التقليل من الخسائر الاقتصادية خلال فترة الجفاف المقبلة بلا شك. ولهذا الهدف قامت بتصفية حساب الجزء الأكبر من العمالة وأعادتهم لأجل غير معلوم إلى قريتهم المتاخمة لحدود الواحة. ودعتهم إلى أن يتدبَّروا، كيف كانوا يكسبون أرزاقهم قبل قدوم عائلة "مالوخ"، ووعدتهم بأن أوقاتًا سعيدة ستأتي ثانيةً بالتأكيد. وقد افتقد"ويلي" الموظفين القادرين على الخدمة، والذين ساروا متباطئين باتجاه منازلهم في سراويلهم الواسعة ناصعة البياض وقمصانهم شديدة الحَمَار حاملين في أيديهم المظاريف الصفراء الرقيقة، لاسيما على بار حمَّام السباحة، حينما كان يُطالب بالبيرة مُعَربدًا، ولمَّا لم يظهر هناك أيُّ شخصٍ يُمكن أن يقدم له ما يطلب، حطم الأبواب الزجاجية المُوصدة لثلَّاجات المشروبات مُستخدمًا مضرب تنس، وتقرَّب إلى أصدقائه الجُدُد من خلال التوزيع السَّخي لزجاجات المشروبات.

بالتزامن مع ذلك أعلن رنين مُجسَّم وطنين رسائل التليفونات المحمولة عن الموجة التالية من الإقالات. هذه المرة كانت تلك الإقالات تَخُص "كويكي" وجزءًا كبيرًا من الشابَّات والشُبَّان المُجتمعين حول حمَّام السباحة، الذين كانوا يتبعونه، خاصةً هؤلاء الذين كانوا يجتمعون حوله يوميًا في المدينة، هناك حيث كانوا جزءًا من الفريق الذي تولى قيادته من المُحللين والتجار، جزءًا من الفريق الذي حقق للبنك في السنوات الماضية مئات الملايين من

الأرباح، خاصةً عبر التعامل الجريء الذي كان يمتلئ بالثقة. والآن!! ولأن كل شيء ينهار - فقد حقق له غالبًا أضعاف ذلك من الخسائر.

في الوقت نفسه، في شارع "جريستشيرش"، كانت هناك شابة تتجول ببطء شديد وهي ترتدي تنورة القلم الرصاص ذات اللون الأزرق الداكن في الطابق الخامس عشر على طاولات قاعة التداول، تلك المُتدرِّبة التي كانت تُمنِّي نفسها سُدًى بالحصول على دعوةٍ لحضور حفل الزفاف عن طريق خياطة أزياء الطوارق. هذه الشابة قامت بفصل الكومبيوترات عن الشبكة، وفقًا للتكليف الذي تلقته، بينما تعلَّقت بمؤخرتها أَعْيُنُ الرجال المذهولين، المُرتدين ملابس غير رسمية حاملين عُلَبًا كرتونية تحت آباطهم.

كانت تلك الإقالات هي آخر الأنباء التي وردت من الوطن إلى الصحراء. بعد ذلك بوقت قصير، انقطعت الخدمة عن تليفوناتهم؛ عندما قرر مسئولو شركة الاتصالات التونسية أن خدمة التجوال مع شركات الاتصالات الإنجليزية باتت تنطوي على مخاطر كبيرة نظرًا لمستجدات الوضع الحالي. وقد فجَّر انقطاع قنوات الاتصالات مجموعة من المشاعر شديدة التباين لدى أولئك الذين أصبحوا بلا عمل. فبينما سالت في أعين بعضهم الدموع، انخرط البعض الآخر في موجة من الضحك الهستيري الذيلا مُبِّرر له، أو موجة من السُّباب الوضيع الذي لا أساس له، وقد بدت قشعريرة خفيفة بين الأكتاف النحيلة لإحدى السيدات النحيلات صاحبات

الشعر الداكن، تلك القشعريرة التي كانت تُعَدُّ رؤيتها في ظروف أخرى أمرًا ممتعًا. تلك القشعريرة التي تصدر عن تصورها أنها ستُدفنُ حيةً في الخارج في رمال الصحراء. أما "كويكي" الذي كان خلع عنه في ذلك الوقت كل ملابسه باستثناء بنطلون من القماش المُجَعَّد، واضطجع على أحد شازلونجات التشمُّس مادًّا ساقيه، فإنه تَصَرَّف بلا مُبالاة، وقذف تليفونه الذي لم يَعُد ذا قيمة، بحركة سريعة من يده، في زُرقة حَمَّام السباحة المُتلألئ، حيث تسبب للمرة الأولى في إراقة الدماء في ذلك اليوم. فالتليفون لم يَغُص ببساطة كحجر في الماء، وإنما تسبب الشكل البنائي المسطح للتليفون في أن قفز بشكل مُضحك ثلاث أو أربع مرات على سطح الماء إلى أن أطاح في النهاية بالأسنان الأمامية لمُعلِّمة السباحة بإحدى مدارس الأطفال الخاصة، والتي كانت تبدو حتى تلك اللحظة إلى حدٍّ ما وكأنها الممثلة العالمية "رومي شنايدر".

ومن وحي تلك الخسائر المصاحبة، بدأ "كويكي" يُلقي خطبةً. وفي تلك اللحظة تمامًا، ظهر "برايزينج" على أطراف حَمَّام السباحة نشيطًا وقد أخذ قسطًا وافرًا من الراحة.

كان مشهدًا، بحق، يصعب تصنيفه. والتحق هذا المشهد تمامًا بالمشهد في شوارع لندن الذي نعستُ عليه وطاردني في أحلامي. وكانت حرارة الشمس هنا تنبعث من السماء بلا رحمة، كما كانت حرارة الظهيرة

لا تُحتمل. كلٌّ شيء غَرِقَ في ضوء فِضي أبرز المعالم بقوَّة، كما صوَّر جميع أوجه الجمال، وكذلك كل أوجه القُبح بوضوح لا هوادة فيه ولا شفقة، وحكم على كل شيء بالجمود الذي ذكَّرَني باللوحات الحية لمسرحيات العشق التي تُعرَض في مدينة "أوبرميرجاو".

على حافةٍ بركة السباحة جلست فتاة تبكي، وعرفتُ - رغم المنديل المُلطَّخ بالدماء الذي تضغط به على شفتيها - أنها الفتاة التي لفتت نظري إليها في الأيام الماضية بسبب الشبه الكبير الذي يجمعها بـ"رومي شنايدر". تَوَلَّت اثنتان من صديقاتها رعايتها، فمسحتا على شعرها المُبلل، وقامتا بتهدئتها. في تلك الأثناء، غاص خطيبها في مياه بركة السباحة، وهو أحد تُجار الأوراق المالية المنتمين لطبقة النبلاء البريطانية، باحثًا عن أسنانها الأمامية المكسورة، وقد التصق شَعْرُهُ الخفيف بوجنتيه.

أما "كويكي"، الذي رمقته الصديقتان بنظرات غاضبة، فقد اهتم وألقى خُطبةً تدور بعض الشيء حول فكرة أن أوقاتًا عظيمة ستبدأ الآن، لأن ما يعرفه عن يقين هو أن المؤشرات تشير إلى الحرب، وهو الأمر الذي لا يُمكن تجنُّبه. وإذا كان الأمر كذلك، فقد توجَّب على المرء حملُ السلاح ثانيةً مع جيوش جلالة الملكة في حالة الطوارئ، ولكن الأفضل أن يكون ذلك من أجل شركة أمن خاصة. كما أنه ليس عليهم جميعًا أن يحملوا الهم، فهو يثق في كفاءتهم، كما أنه مُستعدٌّ لخوض الحرب معهم، مع كلِ فردٍ فيهم.

وإن استدعت الظروف، فعلى المرء أن يستبدل بقاعة المؤتمرات حارات البصرة، أو حقول نفط القرنة، أو حتى أيضًا غابات الفلاندر أو شوارع برلين. مرة واحدة فريق واحد، دائمًا فريق واحد. أنهى بنداء الحرب هذا خطبته ورفع زجاجة البيرة إلى السماء. ليسوا قليلين من رفعوا بدورهم زجاجات البيرة ورددوا نداءه. ومع ذلك، بدا لي أنهم فعلوا ذلك من باب التسلية لا أكثر، هكذا كنت آمل على الأقل.

وتعاملت "جيني"مع الظروف المُتغيرة بشكل أقل عسكرية ولكن أكثر تصميمًا، عندما قررت أن تتخلى عن قائمة التزاماتها التي بدت بالنسبة إليها متأخرةً وغير واعدة، وأن تستبدل بهاقائمة جديدة، تتوسطها مفاهيم الحُب والعائلة. الحب الذي صارحت به "سانفورد" الذي تَفَاجأ به تمامًا، والعائلة التي تنويّ، وفقًا لخُططها، تكوينها معه، وذلك كما أخبرته بعد أن كانت قد أُنهِكت تمامًا من لقائهما الجنسي الجامح لأول مرة، والذي اندفع هو إليه بعد صراعٍ داخلي قصير، حيث كانت ترقد على ذراعه المُتعرِّق وتعبث بشعر صدره الخفيف الأشيب.

"جيني" نفسها كانت تشعر بالدهشة، كيف بدا فجأة هذا الرجل الأكاديمي النحيف الذي كان في عمر أبيها مرغوبًا بالنسبة إليها، ذلك الذي جذبتها إليه بمنتهى السعادة نظراته الطامعة ومحاولاته الخرقاء، فقط قبل سويعات قلائل، للرقص معها ـ للتعرف عليه. ولكنه بدا الآن مختلفًا،

في ضوء هذا اليوم، كيف تولَّى، بقوَّةٍ طبيعية، دفة القيادة، ذلك الذي راهن طوال حياته على الحصان الفائز، ولم يسمح للمعان المال السريع الزائِل أن ينتزعه من عالمه الروحاني الباقي، ذلك العالم الذي يتشكل من منصب الأستاذية بإحدى الجامعات التي تحدت عواصف التاريخ على مدار خمسة قرون، ومنزل اشتراه بالتقسيط، وامرأةٍ يمكن إقصاؤها بهزة وسط ناعمة.انتهزت "جيني" الفرصة قبل أن تفعل فتاةٌ أخرى ذلك؛ حيث جذبته خلف إحدى أشجار النخيل، وألصقته بجذعها الخَشِن، وفتحت أزرار قميصه وصارحته بحبها له، ودون قيد أو شرط، استغلت ذهوله المُتَنَامي وألهبت شهوته، بأن وضعت يديه على صدرها الصلب، وهي حركة بدت أنها تنتمي لقائمة الحركات التي عَفَا عليها الزمن، ولكنها بَرَّرَتها من اليقين بأن هاتين اليدين يدا زوجها المستقبلي ووالد أبنائها، كما وضعت بذلك حجر الأساس لمستقبلها الجديد، بعدما طحنت رَحَى الأسواق مستقبلها القديم وحوَّلته إلى رماد.

للوهلة الأولى، كان "سانفورد" راضيًا حقًّا، وحاول حينها استرجاع قدراته التحليلية، تشمم شعر "جيني"، الذي انبعثت منه بخفة رائحة شامبو غالي الثمن، وتعادلت مرونتها مع تفاهته. حقًّا، لقد جعل من نفسه أضحوكة، حيث لم يتخيل أيَّ شيء عن ذلك. ففي عالمِه، يُعتبر الرجال الكبار الذين لهم صديقات في عُمرِ بناتهم مثارًا للسُخرية. وكان هو نفسه دائمًا على استعدادٍ لوصف زملائه الذين يرتبطون بالطالبات بأنهم حَميرٌ

هالكة ومجانين، رغم أنه أراد هنا أن يُداري موقفه بأن "جيني"تجاوزت بكثير عمر الطالبات. وربما ما كان يُعَدُّ مثيرًا للسخرية بحق، أنه هام حبًّا في وصيفة عروس ابنه، وأنه في حالة عشق، وهو ما كان مُقتنعًا به. ووفقًا لمعاييره ومقاييسه الشخصية، يُعدُّ هو نفسه مثارًا للسخرية.

من ناحية أخرى، كانت هناك مرونة "جيني". "جيني" المرنة. فالمرونة هنا تُرَجِّح كفة الميزان لصالحها. وقد رجحت الكفة أكثر وأكثر، حين ربط بين الأحداث في بلاده؛ تدشين بداية جديدة، بداية جديدة لا يمكن تحقيقها دون رجال مثله، أولئك الذين وقفوا طوال حياتهم على الجانب الصحيح، وأفنوا أفضل سنوات عمرهم في التفكير في كيفية إقامة المجتمع. وبتأمل الأمر في وضوح، فإن هذه المرونة في الواقع تُلائمه، من أجل المصلحة العُليا (For The Greater Good)، بحسب ما قال لنفسه. وهي فكرة بدَتْ له للحظةٍ واقعيةٍ، ولكن ذلك لم يعد له أي دور فيما بعد، لأنه قرر الاستسلام للتفاهة والمرونة.

برعبٍ شديد أدرتُ ظهري للمشهد على أطراف حمَّام السباحة، وذهبتُ للبحثِ عن "سعيدة"، التي وجدتها في مكتبها خلف صالة الاستقبال واستفسرت منها عن إمكانية توافر إحدى السيارات؛ حيث بدا لي في تلك اللحظة أن أفضل فكرة هي مغادرة ذلك المكان في أسرع وقت. "سعيدة" التي اتخذت سلطتها ملامِح صورية بشكل ملحوظ، أنبأتني

بأنها استدعت إحدى السيارات، وحسب آخر المعلومات المتوافرة لديها، فإن سائقًا ما يقود إحدى السيارات وهو في طريقه إلى هنا. ولكنها أقرَّت بوضوح بأن لا عِلم لديها بميعاد وصوله. وقد ساء الوضع الإخباري بشكل متسارع، كما أنها كانت تتخوَّف من إمكانية وقوع بعض الأحداث أيضًا في مدينة تونس، بل وربما في البلاد كلها، والتي لم تتمكَّن بعد من تقدير آثارها المباشرة عليها. ومع الأسف، فإنها تحاول سُدَى منذ ساعات الوصول إلى أبيها الذي تتوافر لديه دائمًا وبشكل رائع معلومات عن أدق الصدمات الزلزالية في البلاد والتي تنوي أن تعتق بها رقبتها من الإنجليز. وقالت إنه بإمكانها بالطبع أن تُوفِّر لي أيضًا مقعدًا على متن الأتوبيس. وبرغم أن شركة الباصات الخاصة بها تحاول معالجة آثار الواقعة الأليمة باستخدام الجِمَال، إلا أنها كانت تأمل في إمكانية إيجاد بديل قبل أن يَعلم الإنجليز بأن شركة الخطوط الجوية البريطانية، وكذلك شركات الطيران الإنجليزية الأخرى في مطار تونس- قرطاج الدولي، توقَّفت عن العمل بسبب الفواتير التي لم يتم تسويتها، وهو الأمر الذي طلبت مني بشكل سري أن أتولَّى تسويته، وذلك لأنها كانت تخشى أنه ما لم يحدث ذلك فإن الإنجليز لن يتركوا المكان بعد الآن. وبالنظر إلى حال "كويكي" وجماعته حول حمَّام السباحة، فقد تفهَّمتُ مخاوفها، ولكنني وجدته من ناحية أخرى أمرًا في غاية القسوة؛ أن ينتقل أولئك الغافلون عما يحدث إلى المطار، حيث يجدون أنفسهم فجأة تائهون مرةً أخرى في قاعاته الباردة.

ظهور "رشيد" قطع حديثي مع "سعيدة"، فهو ظهر في المكتب ممسكًا براديو ترانزيستور على أذنه مع كلبة الصيد المربوطة مع جرائها بحبل، وأوضح لسعيدة أنه لا يُذاع منذ ساعتين سوى الموسيقى. اعتبرتُ الآن أن تجهيز حقيبتي أضحى أمرًا ضروريًّا. وأثناء مُغادرتي لمبنى الاستقبال، لاحظتُ كيف تجرُّ تاجرة البضائع النرويجية بيديها الناعمتين خلفها بشجاعة حقيبتها التي يُمكن نقلها هي شخصيًّا بداخلها بكل بساطة، وذلك عبر الممرّ الذي يصطفُّ على جانبيه النخيل، ثم اختفت في الصحراء بعد عبورها القوس المبني بالحجارة. أثار هذا المنظر دهشتي إلى حد كبير، كما أنَّ ثباتها جعلني حقيقةً أظن للحظة أنها قررت أن ترحل إلى تونس جارَّةً حقيبتها خلفها سيرًا على الأقدام. ملأني الفضول والأمل في أنها ربما تدبَّرت أمر انتقالها، وأنني يمكنني اللحاق بها. مشيت خلفها وغادرت المنتجع المُحاط بسور حجري عبر البوابة ذات القوس الحجري، ونظرتُ عبر الشريط الإسفلتي الذي لا تبدو له نهاية والذي يقسم الصحراء نصفين. السيدة اختفت، ابتلعتها الرياح التي لا تهدأ. أو أنها تبخَّرَت في الأسفلت الساخن الحارِق. لقد وصلت متأخرًا جدًّا، لم يكن يجب السماح أبدًا لشخصية رقيقة كتلك بالخروج من المنتجع، فضلاً عن كونها نرويجية. من ناحية أخرى، دعوتُ نفسي للتعقُّل، فتاجرات القمح النرويجيات الرقيقات لديهن أيضًا إصرارٌ أكيدٌ في مواجهة الصحراء، ولا

يقبلن بسهولة الاختفاء في الهواء. هل كانت تهيؤات؟ هل كانت سرابًا؟ هل يتوجَّب عليَّ الآن أن أشكَّ في قدراتي العقلية؟

بعدها استدرتُ. كانت تجلس هناك في ظلِّ الجدار الأبيض على حقيبتها، وتدلِّي رجليها. اتخذتُ مجلسًا بجانبها، وحاولتُ بطريقتي أن أبدأ حديثًا بيننا؛ افترضتُ فيه أنها بحاجة إلى بعض الكلمات التي ترفع المعنويات، بالطبع كانت مُنهارة تمامًا. لقد تلقَّى ضيوف المكان تعليمات بإخلاء الغُرَف بحلول الساعة الثالثة، ومُغادرة المكان والانتظار في الخارج لحين وصول الأتوبيسات التي من المُقرر أن تنقلهم إلى المطار. وها هي تُنفذ تلك التعليمات، فليس هناك داعٍ للتصرف بشكلٍ غير مُتحضر. ولكن أهم شيء الآن هو الوصول إلى الوطن بأسرع ما يُمكن. كنت على وشك أن أخبرها بأن حركة الطيران باتجاه إنجلترا توقفت، ولكنها منعتني عن ذلك عندما شرحت لي بأنها لن تذهب إلى لندن مرة أخرى، بل ستذهب إلى أوسلو مباشرةً. فهي ترى أن الأزمة فُرصة لبدايةٍ جديدة، فهي تحلمُ منذ وقتٍ طويل بأن تفتتح مخبزًا في مُقاطعة "جرنرلوكا" لإعداد الكاب كيك، وهو نوع من الكعك الأمريكي الغارِق في السُّكر المُلوَّن".

قال "برايزينج":

- "ها أنت ترى أن الناس تعاملوا بطُرقٍ مُتباينة جدًّا مع الموقِف، وقد تزايد لديَّ الشعور بالفضول حول كيفية حدوث ذلك مع صديقتي "بيبا"،

برغم أنني كنت على يقين بأنها تفاعلت مع الموقف بالهدوء والحكمة اللازمين. وحتى ذلك الوقت، لم يكن لديَّ أيُّ خبرٍ عن خيانةِ "سانفورد" المُخزية".

لا، لم يكن لدى "برايزينج" أي فكرة عن العلاقة الكارثية التي تشكَّلت بين عامِلَيْ التفاهة والمرونة من أجل أن تُلقي في الهاوية - ببرودة العُشَّاق الجُدُد - بالسيدة المُتعثرة زوجة عالم الاجتماع، وذلك بعد خمسٍ وثلاثين سنة من الزواج.

وبعد لقاء آخر مع "جيني"، أثبتت فيه مرةً أخرى - وبالدليل - مرونتها وإمكاناتها. استقرَّ "سانفورد" من داخله ـ على الأقل حتى ذلك الوقت ـ على أنه يمكنه إقناعها بأنها ربما لن تكون فكرةً سديدةً أن يزورا معًا زوجته ليخبراها بمستجدات الأمور؛ وعليه أن يقوم بهذه الخطوة الخطيرة وحده تمامًا. وأكدت "جيني" مرارًا على أنما تتعرض له من آلام الضمير بسبب تحطيم هذا الزواج، أمر مؤلم جدًّا. فهي لا تريد تحت أي ظرف أن يُنظر إليها على أنها جرثومة؛ وقد استخدمت المُصطلح المأخوذ عن اليونانية (Schizomycet)، فهي قضت بعض الفصول الدراسية في دراسة علم الأحياء، كما أنها اهتمت منذ ثلاثة أرباع الساعة بالأسلوب الأكاديمي في التعبير، حتى وإن كانت بذلك، كما في هذه الحالة، قد أصيبت مجازًا بالفشل.

ودون جهدٍ كبير تمكَّن "سانفورد" من تهدئتها. لقد كان زواجه على المِحَكّ منذ موت ابنته قبل ثلاث سنوات، ولم يكن ظهور "جيني" أكثر من

تلك الفأس التي مزّقت قطعة الجلد الأخيرة التي كانت لا تزال تربط الرأس بالجذع؛ كان ذلك قولًا مجازيًا، وأضاف بأن الانفصال في حالتهما ليس إلا تحقيقًا للتنبؤات الإحصائية التي تنصّ على أن تسعة أزواج من كل عشرة ينفصلون خلال الثمانية وأربعين شهرًا الأولى بعد فقدان أحد أبنائهم. وقد ردّت على ذلك "جيني" التي كانت عارية حينها:

- وهل يخضع الحب لسطوة الأرقام، كما تخضع الشاة لكلاب الراعي التي تخضع بدورها هي الأخرى للراعي؟

وردًا على سؤالها: إذا ما كان يفهم ما تعنيه هي؟ قال "سانفورد":

- بالطبع، المتسلسلات السببية.

ثم قبّلها على رأسها. أجابت "جيني" بارتياح:

- نعم؛ المتسلسلة السببية، إنها قوية كتلك التي تجمعنا.

حينها، شعر بطنين يضرب رأسه. وللهروب مبكرًا من هذا الخندق الدلالي، شدّ سروالاً قصيرًا على مؤخرته العارية، وجرجر صَندَله متجهًا لإنهاء زواجه.

صعد السلم، فاردًا رجليه، مستمتعًا بحركات عضوه المُنهك، إلى شرفة "الباي"، حيث وجد زوجته تمامًا كما تركها قبل ساعات، مغمِضةً عينيها، ومصوبةً وجهها نحو شمس أفريقيا.

اصطنعت "بيبا" انطباعًا؛ يحسبه مُراقِب غير يَقِظ أنه انطباع غير مُتغيِّر، وذلك ما كان عليه حال "سانفورد" حينئذٍ. في الحقيقة، قطعت "بيبا" مسافةً خطيرة من الطريق إلى ضربة شمس حقيقية، الطريق الذي قطعته إلى النهاية خطوةً خطوة، هكذا بدت المشاعر التي صاحبت مُحاولتها التوفيق بين انكماش قشرة دماغها، والجفاف المتنامي، والبُقع المُتراقصة أمام جفونها المُغلقة، والدوار الخفيف مع حالتها النفسية، وارتباكها، وتعثرها.

كان حديثًا مُقتضبًا إلى حد كبير؛ لأن "سانفورد" استاء كثيرًا من ضحكتها الصافية.

قال "برايزينج":

- "وجدتُ "بيبا" جالسةً في مُنتهى الاستقامة على الحافة الخارجية للمجلس الشرقي. وكان بصرُها مُعَلَّقاً في الأفُق. دعتني للجلوس بجانبها. واستفسرتُ - دون أن أدري بما حدث- عن حالها. حاولتْ الحِفاظ على ابتسامتها، ثم شقَّت فجأةً بعض الدموع اللامعة طريقها. وبأحسن النوايا، أمسكتُ يدها، حيث كنت لا أزال أعتقد أن دموعها كانت بسبب الوضع

الاقتصادي لبريطانيا. وبحركة سريعة، نفضت يدي بعيدًا عنها، وقامت من جلستها، وتمايلت، وخطت خطوةً قلقةً في اتجاه السقوط، ولولا وجود تلك المنضدة الصغيرة المنحوتة والمشغولة من الخشب هناك، والتي استراحت عليها نصف جالسة ونصف مُستلقية، لما أنقذها من السقوط فوق أشجار النخيل إلا تدخُّلي القوي. ونتيجة لإصراري أقرَّت بأنها تجلس هنا منذ ساعات الصباح الأولى بسبب الأرق، دون حتى أن تأخذ شربة ماء أو قطعة خبز. عندها، أعلنتُ عن نيتي في اصطحابها دون تأخير إلى خيمتها. إلا أن هذا المكان بدا أنه مكانٌ لا ترغب هي مُطلقًا في دخوله، وبدلًا من ذلك طلبت إليَّ أن أسمح لها بأن تستريح في خيمتي. وكان ذلك مطلبٌ سارعتُ بالطبع إلى تحقيقه، وأحضرتها وأنا أسندها إلى مكان إقامتي الفاخر، حيث قصَّت عليَّ، بعد بعض رشفات من الماء، عن فِعْلَة "سانفورد" المُخجلة، والتي اتفق كلانا على أنها فعلةٌ مضحكة إلى أبعد الحدود، إلا أنها كانت بالنسبة لـ"بيبا" مؤلمةً بشكل هائل. وضعت لها، تنفيذًا لمشيئتها، قطعةً باردةً مبللةً من القماش على جبهتها مرتفعة الحرارة. وعندما تسحَّبتُ في هدوء خارجًا من الخيمة، كانت هي قد غرقت في النوم".

تجنَّب "برايزينج" بحرص حمَّام السباحة الذي تنبعِث منه ضجةٌ مُزلزلة، واتجه إلى "سعيدة" في مكتبها ليطلبَ منها وجبةً كان ينوي أن يتقاسمها مع "بيبا". وبدلاً من أن يجدَ "سعيدة"، التقى مشرف حمَّام السباحة الذي جَلَسَ مشدودًا أمام التليفزيون، مُتابعًا رجلاً يتلو بيانًا.

انتظر "برايزينج" متحليًا بالصبر حتى انتهى الرجل من تلاوة بيانه، ليتبين من رشيد أن تحالفًا غير معهود بين الإخوان المسلمين المتمرِّدين وجبهة الرابع عشر من يناير الماركسية اللينينية استغلت فُرصة الأزمة الرأسمالية لجعل الربيع العربي فترة ازدهار ثانية. إنما هذه المرة، هُم مُصِرُّون على قطع الطريق حتى النهاية والضرب بيد من حديد والإقصاء النهائي للرأسماليين وأصحاب الحظوة والمنتفعين من النظام القديم؛ الذين تجاوزوا الانقلاب دون أي خسائر فعلية، أولئك الذين مازالوا هناك في تونس الديمقراطية وفي وضع أفضل، ذلك أنهم وزَّعوا المناصب المُدِرَّة للأموال، والتي كان يشغلها من وقع ضدهم الانقلاب، فيما بينهم، وإعادة ثرواتهم إلى أصحابها الحقيقيين وهم أبناء الشعب التونسي. والآن أصبحت أيام الأُسَر الثرية ذات النفوذ، معدودة.

سرى الرُّعبُ في نفس "برايزينج"، الذي يرى بمُنتهى الصواب أن عائلة "مالوخ" ضمن تلك العائلات، وملأه القلق على "سعيدة" وعلى نفسه أيضًا، فهو على كل حال ضيفٌ على عائلة "مالوخ". ولم يفلح مشرف حمَّام السباحة في تخفيف هذا القلق، برغم تأكيده له أن الحديث إنما عن مُصادرة الثروات وليس عن قطع الرِّقاب، فهم لم يعودوا يعيشون في دولة "بن علي".

وجد "برايزينج" "سعيدة" تُدَخِّن السجائر، وتومئ برأسها وهي تتحدث في التليفون بالساحة الرملية خلف مباني المطابخ والمخازن؛ حيث رَقَدَ جمل بمنتهى الرزانة في ظل أحد أشجار النخيل. لم تُخْفِ "سعيدة" شيئًا من مخاوفها ولكنها لم تتلفظ بأي كلمة بشأن الموقف الخطير، لم تُخبره بأن "سليم مالوخ" لم يكن نائمًا عند معشوقته كما ظنَّت، وإنما رهن الاعتقال، كما لم تخبره أيضًا بأنَّ أخاها -الذي كان لِحُسن الحظ يقوم بتدريب لدى أحد المُزارعين في الجبال في منطقة الفوج حيث لا يدري والده عنه شيئًا- يواجه المُلاحقة في فرنسا بأمر توقيف صادر عن الشرطة الدولية (الإنتربول)، وأنَّ المُحْضَرين في طريقهم إلى مُنتجع "ألف ليلة وليلة". وقد أكَّدت له أن سيارتها ستتصل مع السائِق في أي لحظة. وأراد "برايزينج" أن يعرِف هل من الحكمة أن يضع نفسه في أي سيارة ويتجه بأسرع شكل إلى تونس العاصمة. للأسف، كان الطاهي ابن إقليم "كيرنتن" قد استقلَّ آخر السيارات وذهب بعيدًا، ونسي خلال ذلك أن يترك مفاتيح المطابخ والثلاجات، ولذلك أعادته "سعيدة" إلى "بيبا" خالي الوِفاض إلا من أكياس صغيرة بها المكسرات بالعسل والبطاطس المُقرمشة.

هذا "الريجيم" من الأحماض الدُهنية والكربوهيدرات بَدَا وكأنه أفضل الحلول تمامًا كي تسترد المُعَلِّمة الإنجليزية عافيتها. وبينما كان "برايزينج" يُعِدُّ حقيبته، راحت "بيبا" تفتح كيسًا تلو الآخر وتلتهم مُحتوياته مع جُرعات كبيرة من عصير الليمون من إبريق كان على

الترابيزة بجانب السرير. في تلك الأثناء أصبحت "بيبا" أكثر حيوية، ودخلت في حالة من الإثارة، صحيح أنها كانت أكثر صحة من تلك الحالة التي دفعتها لحافة الجفاف وارتفاع درجة الحرارة الشديد، مما يؤثر على الكرامة التي كانت تشع منها بلا شَك حين كانت تُحَملِق في الشمس في صمت. وبدأت الآن تسخر من فِعلَة زوجها المُخجلة، لاسيما بنبرةٍ وجدها "برايزينج" صادمة إلا أنه تفهمها بشكلٍ ما، نظرًا للظروف المُحيطة. كما اعتبرها "برايزينج" تجربةً أبسط كثيرًا من أن تصل بامرأةٍ ذكية مثل "بيبا" إلى الشرف، خاصةً عندما وصلت إلى حد التشنيع الشديد بالبائعة السابقة للأوراق المالية وسيارتها الرياضية الألمانية. كان يتمنَّى في كل لحظة لو أن ضيفته "بيبا" ظلَّت صامتة.. صامتةً.. ساميةً، أعلى من كل شيء، ذاك ما كان يُفكِّر به عندما ألقى بزجاجة شراب الورد غير مُحكمة الغلق في سلة المهملات. هكذا كان ذلك الـ"برايزينج". أما "بيبا"، التي تكتوي بنار المشاعر المتضاربة، وتشعر بالإهانة والتحقير، ويملؤها الحِقد والكراهية، فقد صبَّت كل غضبها على شباب غريمتها، وهي تعلم تمامًا، أن المواجهة في تلك المنطقة محسومة من البداية لأسباب بيولوجية، كما أنها آلمت "برايزينج" بسؤالها له إذا ما كان رأى مدى مرونتها. صدَّق "برايزينج" على قولها بإيماءةٍ صامتةٍ رغم أن سؤالها كان أقرب إلى كونه سؤالًا ذا طبيعةٍ إنشائيةٍ، كما أنها لم تُعِرْ أي اهتمام لتصديقه، وأكملت حديثها بأنها في الحقيقة لا تحمل أي ضغينة على الإطلاق لـ"جيني"، لأن

"جيني" يمكنها الآن أن تناقش ذلك الأحمق العجوز الأكثر علمًا منها. لا، إنها في الحقيقة تَحقِدُ على "سانفورد"، إنها تحسدُه على مرونة "جيني". ثم قالت وهي تضغط بقبضتيها على وسادة "برايزينج" الناعمة:

- أريد أن يكون لي عضو ذكري، أريد أن أتمكَّن من مضاجعة "جيني" الرشيقة.

ضد هذه الكلمات، حارب "برايزينج"، لاعنًا قوَّة الخيال، هجوم فيض حقيقي من الصور خلف جبهته المُتعرِّقة، لدرجة أنه لم يَعُد قادرًا على منع نفسه عن تلك السيدة الإنجليزية التي أمسكته فجأة محيطةً إياه بساقيها، وقبضت على رقبته بيدٍ قويَّة. وكاد الأمر ليبلغ دون شكٍّ مُنتهاه، وربما لم يكن ذلك ليُخرج كليهما من حالة البلبلة التي أصابتهما لو أنهما لم يفزعا من صيحة الموت الرهيبة التي أصدرها أحد الجمال النافقة.

وهنا قطع "برايزينج" سيرنا مرةً أخرى. تقدَّمتُ بعض الخطوات إلى الأمام آملاً أن أتمكن من دفعه لمواصلة السير، ولكنه بقي واقفًا على حاله واضعًا يديه على خصره، وقال متأملاً:

- لم يكن ذلك صحيحًا. لم أكن أنا من كانت تعنيه "بيبا". بل كانت تحلمُ بأن يكون لها عضو ذكري وأن تخترق "جيني" المرنة.

وكما لو أنه استوضح بذلك أمرًا ما، واصل سيره مرةً أخرى بمحاذاة الجدار الأصفر، وتبعته أنا.

الضجة - التي تجنبها "برايزينج" عندما كان متجهًا للبحث عما يأكله - سببتها تلك المجموعة التي أحاطت بـ"كويكي" و"ويلي"، بعد أن نفدت إمدادات البيرة تدريجيًا، كما أن الوضع الغذائي لم يكن مُرضيًا، حيث لم يحصل أحدٌ على شيء ليأكله منذ قطعة الخبز الصغيرة التي تناولوها على طعام الإفطار. مما أدى إلى توتر الأجواء، لدرجة أن القلق الوجودي الذي شعر به كل واحدٍ منهم، والذي لم يجرؤ أحدٌ على إبدائه حتى لا يُشعِروا "كويكي" بالإحباط، ظهر في موجة غضب جماعية. أدرك "كويكي" سريعًا - باعتباره قائدًا مُحنَّكًا - أن هناك إجراءات عليه اتخاذها، وقد توجهوا تحت قيادته إلى المطابخ. وفي طريقهم إلى هناك لم يصادفوا أيًّا من العاملين الذين كانوا يشغلون المكان بمُنتهى التحفظ قبل يوم واحد. في المُقابل؛ وجدوا مجموعةً من الصور الحزينة، كان من بينها العروسان اللذان أخذا يَجُرَّان حقائبهما خلفهما تنفيذًا لأمر الإخلاء الذي أصدرته "سعيدة"، وهما في طريقهما الآن لتكوين صُحبة مع المرأة النرويجية الصغيرة التي كانت بجانب السور الخارجي للمنتجع تنظر مُتأملةً في الصحراء التي لا نهاية لها، وتحلُمُ بنافذة عرض مليئة بالكعك المُلوَّن. حدث تبادُل هادئ للكلمات لفترة قصيرة، حيث تباعدا لمسافة كبيرة

عن بعضهما، وكأن كلًّا منهما لا يزال لديه الكثير ليقوله لنفسه. وكشعبين مختلفين، انشغل كلٌّ منهما بشعائره.

خلقت حملة الغضب التي قادها "كويكي"لنفسها - دون أي إعاقة - مدخلاً إلى المطبخ. لكنها فشلت - رغم الاستعانة بمطرقة لحم ثقيلة - في فتح أبواب الثلاجات المصنوعة من الصلب. لذلك قرر "كويكي" أن يتجهوا للصيد، وبدأت كتيبته التسلح بالشفرات الحادة التي استولوا عليها من أحد حوامل السكاكين. كانت تلك هي اللحظة التي تذكّر فيها "ويلي" زوجته وأطفاله، ثم شرد بشكل غير ملحوظ.

وعقب ذلك أدت حادثتان مُفَاجِئَتان سخيفتان إلى موْقفٍ مرتبك بلغ ذروته بكارثة في مُنتهى الخطورة.

الأولى: كان بطلها صاحب الجمل، الطوارقي المُزيَّف، وأحد المُعجبين بـ"روني". في الحقيقة، كان المُخطط له هو أن يربط جمله، بعد أدائه عرضًا ناجحاً، بجذع نخلة في الفناء خلف مباني المطابخ والمخازن، وأن يخلد للراحة في المكان نفسه بجانب الجمل على فِراشٍ كان قد أحضره معه، ثم يعود في الصباح الباكر إلى مسكنه، مع الأجر الهزيل الذي تقاضاه نظير عمله وتوفيره الجمل. بعدها انتهز الفرصة، عندما اجتمعوا على المائدة، للحصول على طبقٍ كامل من جمبري التمبورا مع صلصة الهريسة التونسية، والذي تركه أحدهم على بار حوض السباحة. وهو في الحقيقة،

كان يرجو أن يتمكَّن من إدخال السرور على "رشيد" بذلك الطبق، حتى يجعله مدينًا لذلك ببعض الأنفاس من غليون الحشيش الذي معه. لم يكن يعلم أن رشيدًا قد أقسم عند انتقاله إلى الصحراء على الإقلاع تمامًا، ليس فقط عن السباحة، وإنما أيضًا عن البحر بشكل عام، وكذلك عن ثماره.

ولذلك لم يبق له إلا أن يأكل وحده تمامًا ذلك الطعام الغريب الذي استدعى بداخله في البداية أجمل المشاعر في العالم كله. الرجل المسكين، الذي لم يعْتَدْ أكل الأطعمة الغنية بالبروتين، اعتقد أنه سيموت لا محالة في المساء، وقد تقيأ أكثر من مرة وهو مُتكوِّمٌ على فِراشه أمام جَمَلِه الذي قَبِلَ الهدية المُقَدَّمة شاكرًا، ولحس الرمال بلسان ماهر. في الصباح الباكر، أشفق رشيد على الرجل الذي كانت قواه قد أُنْهِكَت، ونقله إلى سريره، حيث قضى اليوم التالي كُله، مع انهيار إنجلترا، مُصابًا بالحُمى، بينما كان جَمَلُه ينتظره في الفِناء بمُنتهى الهدوء.

والحادثة الثانية، كان بطلها أحد علماء الاجتماع المُعجبين بأنفسهم، والذي لا يُحب ألَّا يُنصت الآخرون لشروحاته، وأحد رجال الأعمال السويسريين. كان الرجلان يجلسان سويًّا على إحدى الموائد الصغيرة في ساحة إحدى القُرى التونسية، يشربان شايًا لذيذًا. كان رجل الأعمال، الذي يرتدي بنطلونًا مُلوَّنًا، منشغلًا برجل شرطةٍ ضخم يُدخِّن سيجارةً من ماركة "بوسِتَّة" بجانب نافذة نقطة الشرطة، الأمر الذي جعل الرجل

الإنجليزي يدفع بأقوى أسلحته ويقص عليه قصة الجمل المحشو، التي عَرَف "برايزينج" تمامًا أنها إحدى الطرائف، ولم يأخذها مأخذ الجدّ، ولكن الأمر كان بالنسبة إليه سواء، عندما كان يرويها في المساء على أنها أمر جدي، ذلك أنه أراد في الوقت الحاضر أن يحظى باهتمام بعض السكارى من صغار السن.

لم يستغرق الأمر طويلاً حتى عثرت فرقة "كويكي" المُسلَّحة بالسكاكين في الساحة على الجمل. وكان باستطاعة "كويكي"، الذي كان - رغم ذكائه الخارِق - على معرفةٍ غير جيدةٍ بالأدب، كما أنه لم يكن قد استمع جيدًا لقصة "برايزينج" ليلة أمس، عندما رأى الجمل، أن يُنفِّذ الخُطَّة دفعةً واحِدة، حيث أثار حماسة مؤيديه بفكرة الوليمة التونسية الحقيقية. فكوا رباط الجمل، الذي كان يئنُّ في هدوء، واقتادوه بأحد الحِبَال إلى حوض السباحة. وواجَه "كويكي" اعتراضات فريقه، بأنه ليس هناك خِراف أو ماعز أو سمَّان يمكن صيدها، بالإشارة إلى أن الأوقات غير الاعتيادية تتطلَّب أعلى درجات القُدرة على الارتجال، وأنَّهم بالتأكيد سيجدون شيئًا ما يمكن حشو الجمل به. رشيد، الذي جذبه صوت رغاء الجمل، ظهر على حوض السباحة بصحبة كلبته وجِرَائها الأربعة أصحاب المِزاج الجيِّد في وقت غير مُناسب تمامًا، كما أنها لم تكن فكرة سديدة أن يضعَ نفسه في مواجهة مع تلك الزُّمرة من السكارى، التي وجدت نفسها تقف مُنهارةً أمام أنقاض حياتها في بلد أجنبي، من أجل إنقاذ حياة

حيواناته. في الواقع، أراد "كويكي" أن يمزح فقط، فهو لم يكن ليأكُل الكلاب، عندما اتجه عاريًا إلا من بنطلونه المُشمَّر متداولًا السكين بين يديه اليُسرى واليُمنى بشكل مسرحي مُهددًا ومتوعِّدًا نحو حارس حوض السباحة الذي وقف أمام جِرَائه؛ فاردًا صدره رافعًا قبضته. لكن الشاب الأشقر، الذي سَاعَدَ "كويكي" ليلة أمس بإخلاص زملاء الصِّبا، اقترب من "رشيد" من ناحية الخلف، وضربه على رأسِه بمضرب التنس نفسه الذي استخدمه "ويلي" للوصول إلى البيرة. جعلت الضربة القوية مشرف حوض السباحة السابق مثل نبتة نخيل صغيرة، وأسقطته في بركة السباحة على وجهه. وبينما كانت رئتاه القويتان تمتلئان بالماء، شعر وكأنه يسمع أصوات أجراس عوامة صيد الأسماك الصفراء.

ولأن الدماء سالت، وعَلَت صرخة الانتصار بغرق مشرف حوض السباحة، أدرك "كويكي" أن الأمر خرج عن السيطرة، ولكنه أدرك أيضًا ألا طريق للعودة عن هذا الجنون، وجذب الجمل من الحبل قليلًا، وشدَّه بقوة إلى الأرض بوخزه بركلات عكس الركبة، وجلس على ركبتيه تحت صرخات زملائه السابقين على رقبة الجمل المُتألم الذي رمقه بعينين واسِعتين مُبهمتين، وطعنه بكل قوة بالنصل الطويل في قلبه طعنةً أكيدة.

طنَّت صرخةٌ طويلةٌ متحشرجة أطلقها الجمل الذي يموت، ونقلتها الرياح عبر غابة النخيل، فتخللت قماش الخيام، وأفزعت المُتصارِعَين من قتالهما المحموم.

- "بقلب مُتعثِّر وقف كلانا أمام الآخر في خيمتي، وإبريق الماء المقلوب بيننا. بصورة غريزية، أدرك كلٌّ منَّا أننا قد سَمِعنا كائنًا يموت. رجوتُ "بيبا" أن نبقى هناك، ولكنها أرادت أن تتيقَّن من الأمر. أطعتها كارِهًا مستجيبًا لسحبي خلفها إلى حوض السباحة، حيث انطلقت إلينا الصرخة المُدوِّية والصياح الشديد. اختبأنا خلف سور قصير، مُتشابكين كمن يتعرَّض للغرق، وأصبحنا شُهودًا على حادثة لم يحدث لها مثيل منذ حادثة جنون الباكوسسيات على "جبل كَيثائيرون"[2]. قَلَبَ "كويكي" ورجاله الجمل الميت على قدميه الخلفيتين، وجذبوه مجتمعين بقطعة من الحبال، وعلَّقوه على أعمدة تشبه أعمدة المشنقة أتوا بها من شمسية كبيرة،

---

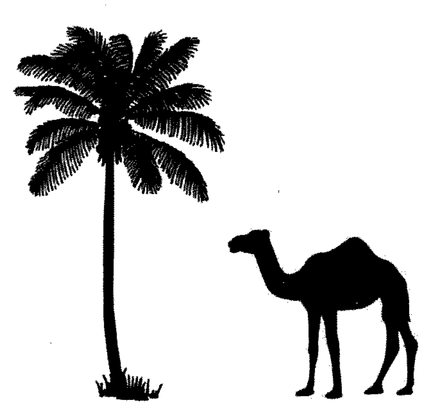
(2) مسرحية يونانية قديمة تحكي عن مجموعة من النساء أسكرهُنَّ الإله ديونيسيوس، إله الخمر والسُّكر، وقادهن إلى جبل كيثائيرون، وكان من بينهن خالته، أم الملك بينيثيوس. وعندما ذهب إليهن ابنها بينيثيوس في زي امرأة ليراقب طقوس العربدة لديهنَّ، أسقطنه وقطَّعنه، وحملت أمه رأسه وهي تظنُّ أنهن قد قتلن أحد وحوش البرية. وقد أيقظها أبوها قدموس وعَرَفت ما فعلت.

وشقوا جلده بضربة حادة، لدرجة أنَّ أمعاءه سالت على الأرضية الزجاجية. عبثت بعض الفتيات الرشيقات مرتديات الشورتات بأيديهن حتى غاصت إلى أكواعهن في بطن الجمل، بينما انشغل الآخرون بنزع الجلد الوبري عن الجثمان بضربة مُوَجَّهة. أسكت "كويكي" الكلبة التي كانت تقف على حافة بركة السباحة وتنبح مذعورة على مُرَوِّضها الميِّت. بعدها أخذ جِرَاءها التي كانت تزومُ وقطع رِقابهم واحدًا بعد الآخر. بقينا، أنا و"بيبا"، جالسين خلف السور كالمشلولين بسبب هذه المشاهد المُرعبة عاجزين عن لمس بعضنا البعض، وغير قادرين على التقدُّم إلى الأمام، أو حتى فعل ما كان ليبدو أكثر عقلانية؛ وهو الهروب. بينما أوقَدَ بعض مُطلِقي العنان نيرانًا كبيرةً في الرمال تحت أشجار النخيل مُستخدمين كراسي التشمُّس الخشبية، وفضَّ البعضُ الآخر أحشاء الكِلاب، ليدسُّوا، في حركة ارتدادية لا تُضَاهى جثث الجِراء مرة أخرى في جسم الأم النَّحيف، ثم حمَّلوا الكلبة الميتة بجسمها المُنتفخ بصغارها المقتولين في بطن الجمل الواسِعة المُلوَّنة بحُمرة الدم. استعرت النيران في كراسي التشمُّس، عندما بدأوا في وضع الجمل المحشو على النيران، ولكن حتى الآن لم يطب لحمه، حيث اشتعلت النيران في اللحاء الجاف الموجود على جذع إحدى أشجار النخيل، والتهمت الجذع الطويل الرفيع في ثوانٍ معدودات، وسقط سَعْفُ النخيل بسهولة في النار، لدرجة أن النخلة بالكامل ارتفعت في طقطقة وتكسير في مواجهة طلوع الصُّبح ".

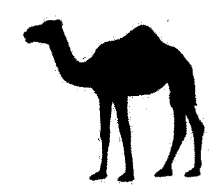
وعندما هاجمت النيران، تُزكيها رياح الصحراء الساخنة، أشجار النخيل المُحيطة، تفرَّق جمعُ القوم تحت أمطار السعف الملتهب، وأسرَع كلٌّ من "بيبا" و"برايزينج" إلى الهروب، ومع ذلك سدَّت عليهم النيران الغاضبة طريق الخروج، فبحثا عبر الدخان وأعمدة اللهب عن مَفَرّ، حيث بدأت الرؤية تضيع سريعًا نتيجة الدُّخان الكثيف. واندفع الإنجليز يصرخون فزعين، ويرقصون حول الجذوع المُسْتَعِرة، بينما نوى البلح يتفجَّر فوق رؤوسهم مدوِّيًا كقذائف الأسلحة النارية نتيجة لحرارة النيران. كما اشتعلت النيران لفترة قصيرة في الخيام، وتساقطت الطيور على المفروشات القَيِّمة. وقد أسرع "برايزينج" باتجاه المبنى الرئيس، مُتخذًا منحنى كبيرًا، مُناديًا باسم صاحبته. خلفه، كانت الواحة في قلب النيران. وهنا اندفع ضوء الكشَّافات القوية لإحدى السيارات عبر الدُّخان لإنقاذه. سَمِعَ أحدهم ينادي باسمه، وسحبته "سعيدة" إلى المِقعد الجلدي الخلفي لإحدى سيارات الدفع الرُّباعي التي يبدو أن سائقها أحضرها حالاً عبر المدخل الخلفي في الوقت المُناسب. وشعر بمدى سُرعة خروج السيارة القوية بينما كان يسعل وهو شبه مُختنق، وقد أعماه الدخان المؤلم، واحترقت أطراف شعره، كما التصق بعض فُتات سعف النخيل المُحترق برقبته. وكانت الجذوع المشتعلة تَسدُّ عليهم الطريق من أمامهم، فعاد السائق إلى الخلف، واستدار حول المبنى، واقتحم أحواض الزهور متجهًا إلى المدخل نصف الدائري، وطاف حول النافورة بإطارات السيارة التي

ينبعث منها الدخان، مُتجاهلاً النزلاء الذين هرولوا خلف السيارة، ثم انحرف إلى الممرّ المُشتعلة فيه النيران، وتجاوز العديد من الهاربين في هلع شديد، والذين كان عليهم القفز لتأمين أنفسهم. كما داس إحدى الحقائب الصلبة المتروكة فانفجرت، وفرَّ من المنتجع المُحترق عبر القوس الصخري.

في قافلة طويلة ارتحل الإنجليز يَجُرُّون حقائبهم خلفهم، كما فعل اليهود يومًا ما، يسيرون على الطريق الطويل المستقيم في الصحراء، مسببين سلسلة من الظلال الخفَّاقة في الرمال الحمراء المُلتهبة. اندفع "برايزَينج" في سيارة الدفع الرباعي الآمنة مارًّا بهم، وكان وجهه المُلطخ بالسواد ملتصقًا بنافذة السيارة محاولًا دون جدوى التعرف على صاحبته بين الفارِّين في ضوء النيران المُشتعلة. ولفترةٍ طويلة ظل ينظر عبر النافذة الخلفية للسيارة إلى الجحيم الذي يُلقي بظلاله الخفَّاقة على الصحراء، صابغًا السماء باللون الأحمر المُلتهب.



7



قاد سائقُ "سعيدة" سيارة الدفع الرباعي السوداء دون أضواء في الليلة المُقمرة. كان شريط الإسفلت الأسود بارزًا بوضوح عن الرمال الفاتح لونُها. وفي وقتٍ ما، انحرف بالسيارة عن الطريق، كي يستكملوا مسيرتهم على طريقٍ ضيقٍ من الحصى، وقد أضاء أنوار السيارة. وبين الحين والحين، كان يظهر حيوان مذعور في مخروط كشّافات السيارة بأعيُنٍ لامعة. كان "برايزينج" يشعر وكأن تلك الأعيُن تنفذ مُباشرةً إلى أعماق نفسه حيث يفترض أن يحتفظ بالصور الدموية إلى الأبد. بعدها يُطلِق ذلك الحيوان رجليه الخلفيتين في الهواء، ويختفي في الصحراء القاتمة، ويتركه وحيدًا مع رفيقيه الصامتين. بعدها تَغَيَّرت بالكاد البيئة المُحيطة؛ وبشكل غير ملحوظ. اختفت الرمال والحصى، وظهرت طبيعة صخرية

مهجورة. كان الطريق مُرتفعًا ومليئًا بالمُنحنيات. وكأنهم مُؤمَّنين في رَحمٍ مصنوع من الزجاج المُقوَّى، وقماش صالون السيارات ذي اللون الأبيض الفاتح، وخشب الجذوع اللامِع. اخترقوا طريقًا مُرتفعًا ضيِّقًا تحت السماء المُرصَّعة بالنجوم. فَقَدَ "برايزينج" الشعور بالوقت تمامًا، وأزاحت المزروعات الكثيفة الصحراء لتحل محلها.

- "أتذكر وقفتنا بأحد الأكواخ الريفية المُنفردة. كما أتذكر مُزارع الزيتون الذي لم يكن قد أفاق تمامًا من نومه عندما وقف بجوار سيارة الدفع الرباعي الضخمة؛ مُمسكًا بقوة - وهو مُتشكك - بالمفاتيح التي دسها بين يديه سائق سعيدة. استكملنا رحلتنا في سيارة بيجو قديمة. تسلل هواء الليل البارد عبر النوافذ غير محكمة الإغلاق، واندفعت نحونا الرائحة الحامضة لحليب ماعز مسكوب. في الصباح الباكر، ظهرت مشارف مدينة تونس. وهنا غطت "سعيدة" وجهها بغطاء رأس غير مُزَيَّن. توقَّفت السيارة في منطقة تجارية أمام سياج مصنوع من الأسلاك. ظهر أحد الشبان، وكأنه كان يتوقَّع وصولنا، وفتح البوابة المُغلقة. ومع الضوء الأول من اليوم الجديد، نزلتُ من السيارة البيجو أمام مبنى قصير من الصاج المموَّج، مُرخيًا أعضائي المُتحجرة، ولكن أحدهم دفعني دون تمهل إلى داخل ذلك المبنى الخالي من النوافذ".

يصعب وصف ما شَعَرَ به "برايزينج" عندما دفعوه إلى القاعة المُضاءة بأنوار النيون. بل يصعب على الإطلاق حصر ما فهمه وما أراد فهمه مما رآه هناك. منظر ظهور الأطفال الرقيقة المستديرة المنحنية على الطاولات الطويلة. الهدوء الشديد، غياب أصوات الأطفال الذي جعله يظن للحظة أنه في أحد الأبنية التعليمية. الأيادي الصغيرة السمراء ذات الكفوف الوردية التي تُرَكِّب بشكل روتيني لوحات إلكترونية ومقابس ومفاتيح في عُلَبٍ بلاستيكية. الشاب المتفتح النحيف ذو الملامح السمراء المُميزة لقبيلة الدينكا في جنوب السودان، الذي ينزع بأظافر مغطاة بالدماء مُلصقات صلبة صغيرة من رُقاقةٍ، ثم يلصقها بدقة على زوايا عُلبٍ بلاستيكية صغيرة. الخط الكتابي التعريفي الأحمر لشركة "بريكسينج"، الذي ظنَّ "برايزينج" أنه يعرفه، ومن تحته شعار: Genius of Swiss Engineering (عبقري الهندسة السويسرية) الذي كان "برودانوفيتش" يفتخر به كثيرًا، والذي دفع "برايزينج" من أجله أموالًا طائلة لإحدى شركات الدعاية في زيوريخ. صوت مُنصف داغفوس في رأسه:"صِبْية صغار مهرة... صِبْية صغار مهرة". المكتب المليء بالدخان وفي داخله الرجل الضئيل جالسًا على أحد كراسي الحدائق، والذي لم يرفع قدمه حتى بخفِّها البالي عن الطاولة عندما دخلت عليه "سعيدة". كان جهاز التليفزيون في الزاوية، يعرض مشاهد لتتنزه المواطنين التونسيين في قصرٍ زخارفه مُترفة. قصر مثل ذلك القصر الذي استضاف "برايزينج" قبل أقل

من أربعة أيام، هل يمكن أن يكون ذلك حقيقيًّا، بدت له الفترة أطول كثيرًا، الكوب القذر وبه الشاي الثقيل الذي قَبِلَه شاكرًا، "سعيدة" التي خلعت عنها غطاء رأسها وغَرِقَت في نومٍ عميق على أريكةٍ من الجلد الصناعي بين الجرائد القديمة وأوراق تغليف قديمة ملوثة بالزيوت.

ويحكي "برايزينج":

- "سألني الرجل القصير قائلاً: هل أنت غاضب؟ هل كنت غاضبًا؟ لا؛ لم تكن تلك هي الكلمة الصائبة، فقد كنتُ ثائرًا، وتذكَّرتُ رجل الأعمال الشاب، ذلك الذي قال لي يومًا ما - وهو يأكل شرائح اللحم في زيوريخ، وقد تأمل المسألة بحياد صحي - إن الأمر فيما يتعلَّق بعمل الأطفال ليس بتلك البساطة. عن قُربٍ، بدا لِيَ الأمرُ على كلِّ حال في غاية البساطة. بسيطٌ ومثيرٌ للغضب. ولكن لم يكن ذلك ما أراد السائل، كما فهمت. كما أوضح لي بصراحة أنه لو كان في مكاني لغَضِبَ أشد الغضب، ففي النهاية، أنا أدفع لمالوخ الثمن كاملًا من أجل عُمَّال أكفاء في سن العمل، في حين، كما رأيت بأمِّ عيني، أنَّ من يجمع منتجاتي القَيِّمة هم أفارقة سودٌ صِغار. وهنا قال الرجل الضئيل: السيد مالوخ أَعدَّ ذلك جيدًا، فمنذ أكثر من عامٍ، كنتُ لأنخدع كذلك، عندما استولى "سليم مالوخ" على مؤسسة التجميع المُنتجة هذه التي تُدارُ بمُنتهى الإتقان، وقد أشار أثناء ذلك بإبهامه أصفر اللون إلى بطنه الكبير، بسعرٍ زهيدٍ لا يُضَاهى في ظروف مواتية بشكل فجّ من ورثة

أحد منافسيه، وهو رجلٌ في مُنتهى الشجاعة، واجه حريق أحد مصانع الفوسفات وليس معه سوى جاروفٍ ودلوٍ من الرمال، وقد فقد رأسه في تلك الحادثة. وأضاف قائلاً: إن لديه اقتراحًا مُغريًا على أية حال، مفاده كالتالي: بما أن الأمرَ قد انقضى على كلِّ حال فيما يتعلَّق بصفقات عائلة "مالوخ"، ولأن هذه المؤسسة هنا غالبًا لم تظهر إطلاقًا في أيٍّ من السجلات، ولذلك فإنها ستنجو من عمليات التأميم البشعة - فإنه مُستعدٌّ للإعلان عن الاستمرار في إدارة هذه المؤسسة على مسئوليته الشخصية، وبهذه المهمة الجديدة كراعٍ، فإنه سيكون بالطبع في موقفٍ يسمح له مُستقبلاً بأن يقدِّم لي بالثمن شيئًا في المُقابل. وقد اعتبرتُ أن أذكى ما يكون في موقفي ذلك هو عدم المُضي قُدمًا في الخوض في هذا الاقتراح الذي يُعتبر من كل النواحي اقتراحًا إجراميًّا وخبيثًا، كما عاقبته أيضًا بسكوتٍ مُهين".

سكوتٌ يُفترض في الحقيقة أن يُعد علامة على عدم القدرة على الكلام. سكوتٌ فهمه موظف "سليم مالوخ" الخائن بشكل خاطئ تمامًا، وذلك لأنه نظر إلى "برايزينج" على أنه رجلٌ صعب المِراس، وذلك رغم مظهره البائس، أو ربما لذلك السبب لم يكن "برايزينج" قد حلق ذقنه وشاربه منذ ثمانٍ وأربعين ساعة، بالإضافة إلى ملابسه المُحترقة أطرافها وشعره الواقف وقوف الجبال، ما جعله يبدو متهورًا بعض الشيء، وليثبت له أنه كذلك التقط تليفونًا من سترته الرمادية المصنوعة من الجبردين، وأبلغ سلطات الأمن أنه تحفَّظ على ابنة "سليم مالوخ".

جاء أربعة يرتدون زيًّا موحدًا ليأخذوا "سعيدة". جذبوها من شعرها، مرورًا بالطاولات الطويلة التي بَقيت رؤوس الأطفال منكفئة عليها ولم ينشغلوا عن عملهم. شبَّ الرجل القصير ليتمكَّن من وضع ذراعه حول كَتِفَيْ"برايزينج"، ثم سار به إلى الخارج، واستمرَّ في الإشارة إلى النظافة العامة في المؤسسة. فتح شرطيٌّ صغير باب إحدى سيارات الدورية. وهنا شعر "برايزينج" بوجود يد مُرافِقه على شعره تحميه بعناية من أن يصدِمَ رأسه بحافة الباب. واستمرَّ قائلاً: "ستتصل بي، حتى نتحدَّث بشأن السعر الجديد". ثم أغلق باب السيارة من خلفه، ولَوَّحَ خلف السيارة المُنطلقة بسرعة. نظر "برايزينج" من فوق الأكتاف إلى الوراء. ورأى كيف تعثَّرت سعيدة، كما رأى كيف داسوا عليها بأحذيتهم وجرُّوها من ثوبها، ماركة "رينيه ليزارد"، على الإسفلت الساخن، وقد تمزَّقت سترتها، فبانت بطنها العارية، وانكشفت حمَّالة صدرها الزرقاء. تخيَّل أنه رأى هذا المشهد من قبل، ولكن في سياق آخر وتحت عنوان آخر، إلا أنه لم يستطع أن يتذكر. هذه التوليفة الغامضة مَكَّنت "برايزينج" من أن يشعر، بعد ربع ساعة عندما أخرجوه من السيارة أمام السفارة السويسرية، بأنه غير قادر على التأكُّد ما إذا كان حقّاً قد مرَّ بكلِ ذلك.

أنهى "برايزينج" قصته بوصف رحلة العودة في طائرةٍ سياحية مزدحمة، ورؤية مُدَبِّرة منزله التي كانت تنتظره في المطار. للمرة الأخيرة، كان عليه أن يبقى واقفًا على طريق من الحصى. وهنا قال "برايزينج":

"وجهها ..." وقد رفع يديه لأعلى وكأنه يلمسه بنعومة "...بدا لي في كل لحظة كأجمل ما يمكن تصوُّره؛ أنت تعرف بالطبع مدبِّرة منزلي".

وذاك ما فعلته حقًّا، فقد كانت تزور "برايزينج" بانتظام. ثم استدار إلى الطريق نحو المبنى الرئيس، وقال: "تعال، اشرب القهوة وتناول الكعك".

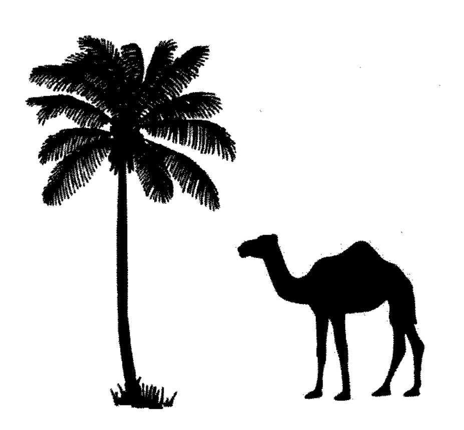
وماذا قصدَ بذلك، بتلك القصة الحزينة المليئة بالمُصادفات المُحزنة؟ قصة لا ينتفعُ منها بأي عظة!!

لقد كان "برايزينج" حزينًا جدًّا بسبب حكايته الشخصية. كلُّ شيء كان باديًا على وجهه. الأنفُ الحزينة، الشفاه الجافة، العين الدامعة. لم أتمكن حينها أن آخذ ذلك بعين الاعتبار. فسألته بلا رحمة:

- "ماذا قصدت بذلك؟".

بدا أن في إجابته دراية خفية ومسحة من الألم لذلك تمامًا، فقال:

- "لقد طرحت مرةً أخرى السؤال الخاطئ".



#كتب_مختلفة #سويسرا



كانوا يتبادلون النكات عند البار، ثم يختفون ... وفي خيامهم المكيفة كانوا يصدرون التعليمات إلى أفراد الخدمة بكل ثقة، أو يتجولون بين أشجار النخيل ويطلقون اللعنات، وهم يبحثون عن استقبالٍ أفضل لأجهزة التليفون ماركة "بلاك بيري" التي يحملونها، إذ تُحَتِّمٌ عليهم رواتبهم أن يكونوا متاحين في أي وقت وكل مكان. تعجب "برايزينج" من أن يتحمل الوضع المالي في لندن غياب خمسين من الكفاءات الشابة. ولكنه فكر أنه ربما لم يعد بالإمكان إنقاذ شيء، واختار هؤلاء أن ينجوا بأنفسهم في هذا المكان.



يوناس لوشر:

ولد في برن (سويسرا) سنة 1976م. عمل مدرساً في مرحلة التعليم الأساسي (الابتدائي) في مدينة برن. قضى بضع سنوات يعمل في مجال صناعة الأفلام (عالم السينما) في ألمانيا. درس في مدرسة ميونيخ للفلسفة في سنة 2005. وبعد تخرجه وحصوله على الدراسات العليا في الفلسفة، عمل محررًا أدبيًا حرًا في الصحافة. عمل باحثاً في معهد العلوم والتكنولوجيا في ميونيخ. وكان يُدَرِّس مادة "علم الأخلاق" في مدرسة الاقتصاد بالمدينة نفسها. ثم ظل يُحاضر فى الأدب المقارن، تسعة أشهر، كأستاذ زائر في جامعة ستانفورد (الولايات المتحدة الأمريكية) خلال العامين 2012، 2013. حصل على جائزة "بيرنر" للأدب عن روايته الأولى "ربيع البربر" سنة 2013. وحاز على جائزة "الكتاب الألماني" في القائمة الطويلة، عن الرواية نفسها، والتي نشرتها له الدار الألمانية الشهيرة "C.H.Beck".





العربي للنشر والتوزيع

60 شارع القصر العيني 11451 - القاهرة
ت: 27954529 - 27921943 فاكس: 27947566
www.alarabipublishing.com.eg

تصميم الغلاف: محمد سيد